نزيه أبو عفش

أهل التابوت

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

أهل التابوت

شعر

Author :Nazih Abou Afash
Title: People of the coffin
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2001
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : نزيه أبو عفش
عنوان الكتاب : أهل التابوت
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠١
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved for the author. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the author.

نزيه أبو عفش

أهل التابوت

الباب الأول

رعاةُ الظلام...

حديقة الأموات

منذ زمانٍ وأنا أحفرُ في هذا الظلام الوحشِ ؛
لا أحفرُ بحثاً عن مفاتيحِ قلاعٍ أو كنوزِ مدنٍ ميّتةٍ ،
عن رُقُم سوداءَ أو تيجانِ أجدادٍ ملوكٍ
حُفِظَتْ أسمالُهم في الطينِ .
لا ؛ بل أَحفرُ الظلام كي أُبصر أسمائيَ في آخرِهِ . .
أَحفرُ كي أنظّف المرآةَ من غبارها الأبكمِ . .
أحفرُ الغيابَ كي أرى
شهوةَ نفسي حيّةً في صدأ الغيابْ .

أحفرُ . . لا مستعجلاً ولا مُلولاً ،
أجمعُ الغصاتِ في إنائها الأسودِ
والدموعَ في إنائها الكحليّ ،
والدماءَ في إنائها الحزينِ . . .
ثم أنفخُ الحياة في الحبرِ .

. . .إذنْ : أحفرُ .

. . . . . .

بلْ أحفرُ كي أرى
ما لا يُرى إلا بعينِ القلبْ :
أحفرُ كي أراني .

*

وها أنا الآنَ كأنْ لستُ أنا
أعود كالمنجِّم الأعمى إلى ديار أسلافي :
أَعُدُّ الحجرَ الصامتَ والغبارَ/
حيرةَ الأشجار في هوائها الشائخِ . . .
ما خلَّفهُ النسيانُ من تأتأةِ الطيورِ
فوق غُصُنِ الحضارة الدامي . . .
أَعُدّ ضجرَ الظلالِ فوق نعشها الأخضرِ
(لا ظِلٌّ لها سواها
طافيةً فوق الخرابِ! . .) .

وأَعُدّ وحشتي .

. . . . . .

. . . . . .

سمعتُ أنّةَ الظلام تعلو ، فطرقْتُ حجرَ الظلامْ .

طَرَقتُ حتى استيقظتْ عناصرُ الخليقةِ الأولى :
ٱلعظامُ استيقظتْ . . ونهضتْ تمشي . .
ٱلضلوعُ استيقظتْ . . ونهضتْ تمشي
ٱلنعاسُ استيقظَ . .
ٱستيقظتِ العناكبُ ، الديدانُ ، ذرّاتُ الهيولى الأمِّ ،
نملُ التعبِ المجدَّدُ . .
ٱستيقظتِ الروحُ . . . .
وفرّتْ نحلةٌ! . .

شهقتُ :
يا إلهَ الأرض هذي نحلةُ الأجدادِ مازالت هنا
تُقطِّر الربيع من لعابها الأشقرِ ؛
والدودُ الشقيُّ ينسجُ النعاسَ في أبدهِ الداكنِ ؛
والنملُ الذي كان هنا منذ قرونٍ لم يزل هنا
يديرُ مغزل الموتِ ويصنع الحيااااة/
و«ٱعبُدْني» . . يقولُ النملُ لي .
«ٱعبدني» . . تقولُ يَرَقاتُ الضجرِ .
«ٱعبدني» . . يقولُ السَرْوُ ، والهواءُ ،
والنحل الشجاعُ (راهبُ الزهورْ)
والماءُ النبيُّ . . توأمُ النور الذي يشهقُ تحت النورِ

والبذورُ . .

والطحالبُ العمياااءُ . . .

كلها تقول لي :

«اْعبدني . . .» .

فأَطرُقُ الظلامَ كي أَعبدَ ما يفيضُ من أنواره على فمي

أهزّ قلبَهُ الشقيَّ

باحثاً (في قلبهِ الشقيّ) عن لؤلؤةِ اللطافةِ الأولى .

أهزُّ قلبَهُ . . (لكي أهزّ قلبَهُ)

فتسطعُ الحيرةُ زرقاءَ! . . .

عِمي إذنْ أيتها الحيرةُ . .

عِمْ يا جدّيَ الظلامَ . .

يا أرضُ عِمي . .

وعِمْ أخي الدودَ . . حكيمَ الندمِ الأعمى .

وعِمْ صديقي النحلْ .

*

وها أنا الآنَ ، هنا ، كأنني سوايَ :

ندمي عالٍ ويأسي مالحٌ ،

وليس لي من فطنةِ الأمواتِ غيرُ أنني

أحرثُ في حديقةِ الأمواتِ :

أستنطِقُ ما يهبُّ من ظلامهم على فمي . .
أقولُ ما قالوهُ ؛
أُحْيي شجنَ الكلامِ في محبرة الكلامِ ؛
أرعى غنمي على مروجهم ؛
أشربُ من إناءِ موتهم ؛
أقول ما قالوهُ (مايقوله الظلامُ لي) ؛
أستحضرُ الفطنةَ من طلاسم العبارةِ الأولى
وأحني كبرياءَ الوحشِ قدّامَ إلهِ الوحشِ :
«يا أللهُ ، يكفي ألماً .
تعبتُ . بل تعبتُ . بل تعبتُ مّما تتعبُ الوحوش منهُ .
تعبتْ مخالبي ، ناري ، حديدي ، شهوتي .
تعبتُ من طيشِ رماحي . . وتعبتُ منكَ .
داوِني إذنْ . .
داوِ حديدي بحليبِ الضعفِ . .
داوِ حيرتي بِحيرةِ الجمااالْ»

. .والأمواتُ ، في حديقةِ الأمواتِ ، أمواتٌ .
يهذِّبون صمتَهم بعسلِ الظلامِ ،
يبنون بيوتهم من الظلامِ ،
يبكونَ ظلاماً . . ،

ويربّون إناثَ النحل في أفواههم
لكي يلطِّفوا
مذاقَ نومهم .

. . . . . .

. . . . . .

أقولُ ما قالوهُ :
هذا نحلنا الباكي ،
وهذا النملُ شيخُ سعْينا الشقيّ ،
هذي الدودةُ الشقراءُ صوتُ نومنا ،
وهذه المروووجُ . . . دمُنا الأخضرُ .
. . والماءُ لهاثُ ضعفِنا .

أقولُ ما قالوهُ .
أستخدمُ ما كان لهم من حِيلِ العيشِ : الفؤوسَ ، الكتبَ ، النيرانَ ، زهوَ الفقهاءِ ، صلفَ الحديدِ ، حبرَ الشعراءِ ، شهواتِ الليلِ ، ضعفَ العاشقينَ ، الغضبَ ، الحياءَ ، ملحَ الخوفِ ، طعمَ الألمِ الحامضَ ،
خوفَ الموتِ . . . .
ثم : الموتُ!! . . .

والهواءْ
أزرقُ كالنسيانْ .

. . . . . .

. . . . . .

أقول ما قالوهُ . .
ثم أنحني عليّ باكياً كأني حيرةُ الموتى . .
كأني روحُهم تنهضُ في شجاعةِ النحلِ وحكمةِ النمالِ/
«ما الذي جئتُ لكي أفعلهُ هنا؟ . .» ـ أقولُ هامساً لي .
«ما الذي أرغبُ في رؤيته غيري؟ . . وما الذي؟ . . .» .
ـ جئتُ أصلّي لإله الضعفِ . .
جئتُ أعبد الجمالَ صامتاً .

. . وهكذا ينفتحُ الظلامُ لي .
أنامُ كالميْتِ إلى جوارهم . . فأبصرُ النجومْ
أبصرهم فيها
أبصرُ صوتَ موتِهم
أشمُّ ملحَ الخوفِ في هوائهم (خوفي . . .)

أشمّ طعم الصلواتِ ، الندمَ ، الغفرانَ . .
والضعفَ الذي صيّرهم آلهةً :

أرى الجـمـــــــــالْ .

نيسان ـ ٢٠٠٠

يومَ قادتني جدتي لنشهد هبوط الموتى..

على غير ما يرى الرحّالةُ والفلكيون
لم تكن الأرضُ شبيهةً بأرضْ .
ليس غيرُ هضبةٍ وخلفها السماءُ . .
ونورٌ أعمى .
لا صوتَ ، لا حركةَ ، لا صياحَ طائر .
فقط : صمتٌ بلّوريٌّ . . وأعشابٌ لا تحركها ريحْ .
وأنا خلفكِ ، أنزلقُ طافياً على ظلٍّ نفسي
مبهوراً بحفيفِ ثوبك الأسودِ . . وأنفاسي .

ناديتُكِ من داخلِ قلبي . . أنْ توقّفي لنستريح .
من داخلِ قلبي . . لنقعدَ قليلاً ونقتلعَ الأشواكَ من أقدامنا العاريةْ .
ناديتكِ . . وكنتِ تسمعينني (إذ كانت أصابعُ يديكِ تنقبض على الهواءِ . . فيما أنتِ ماشيةٌ قدّامي كعمودِ دخانٍ صُلْب) .

فجأةً ، التفتِّ إليّ دون أن تبصريني . .
فقطْ أجفانُكِ ارتعشتْ قليلاً . . وسمعتُ صوتكِ يعكِّر سكينةَ الهواء :

ليس بعدْ . . ليس بعدْ .
سيأتي وقتٌ يستريحُ فيه الإنسانْ .
سيأتي وقتٌ طويلٌ طويلْ .

وكنتِ تشبهين ، بصمتكِ وبهائك ، القديسةَ مريمَ الأولى . . التي نامت تسعةَ عشر قرناً وأربعينَ سنةً تحت الصخر ، ثم خرجتْ على هيئةِ زهرةِ سيكلامان حزينةْ . . حزينة وسوداء .

ثم بدأتِ تدورين حولي ، حول حيرتي وضعفي ولهاثي ، تائهةً في مهبِّ أسرارِكِ الدامية ، تُفَرفِطينَ حبيباتِ الهواء اليابس ، وتتكهّنينَ بما ستؤول إليه الممالكُ والبشرُ والزواحف .

. . . . . .

أعرفُ . . أعرف . .
ليس الغضبُ ما كان يجعل قلبكِ يصيح . . بل الخوفْ ،
ولا الكراهيةُ . . بل الندمْ ،
طبعاً ، ولا الرغبةُ في استردادِ دَينكِ القديم من الحياة . .

بل فداحةُ الصفح .

كنتِ ، في صمتكِ وآلامك ، تحلمين بسلامِ العالمْ . .

تهيئين الأغاني لأعراسِ البشر ، وتُربّين السنونواتِ الحزينةَ تحت إبطيك ، لتُطْلقيها ـ حين يتطلّبُ الأمر ـ في السماواتِ المحتلةِ بالطائراتِ وصراخِ زعماء العقائد .

*

*

أخيراً . . وصلنا إلى ما كان يسميه أمواتُنا : «جورةَ الراعي» . .

وسمعتكِ تجهشين : «هنا عاشَ الموتى . .» .

«عاش الموتى! . .» : سمعتُ صوتَ نفسي .

وفجأةً لفّني هواءٌ باردٌ وسميكٌ كهواءِ الكاتدرائيات .

«هنا عاش الموتى»! . . فتطلّعتُ حولي باحثاً عما يمكن أن يكون الموتى قد تركوه من آثارِ عبورهم على الأرض :

هواءٌ مُرٌّ . . ورائحةُ موتْ . وآثارُ أقدامٍ سريةٍ مسحتها الرياح (لم يتسنَّ لهم الوقتُ ، ولا الدهاءُ ، لينقشوا بصماتِ أقدامهم على الصخر كما يفعلُ الطغاةُ والرُسلُ والقديسون) .

فقط : هواءٌ مُرٌّ . . ورائحةُ موتْ .

مواقدُ حجريةٌ تجمدتْ نارها في قشورِ دخانٍ أسود . قُدورٌ

مقلوبةٌ هرّأتْها رياحُ الزمن (الطيورُ أتتْ على طعام الموتى! . .) .
طلقاتٌ فارغةٌ . سكاكينُ بلا مقابض . دمٌ صدىءٌ لم يعد شبيهاً بالدم . برازٌ متفحّمٌ . أحذيةٌ مشويةٌ . أزرارٌ وتمائم . أقراطٌ وعقودٌ . أعقابُ سجائر . وأوراقُ رسائلَ يابسة : «إلى اللقاء يا أمي . انتظريني على الضفةِ الأخرى» .

ثم ماتَ الأمواتْ .

السجائر انطفأت في أفواههم . ولا أحد وصل إلى الضفة الأخرى .

: لاوجودَ لضفةٍ أخرى .

وقلتِ لي : هؤلاء هم أهلي .

. . . . . .

. . . . . .

ثم جلسنا .

جلستِ أنتِ ، فجلستُ أنا ، وجلس الهواااءُ/

. . جلسَ الهواءُ/

جلس الهدهدُ والجندبُ والثعبانُ/

جلستْ أرملةُ الغرابِ تبكي/

جلس النورُ على قميصِ نفسه ؛

جلستِ الأفكارُ والأسرارُ/

جلستْ فراشةٌ ؛
جلستِ النايَاتُ والطيورُ/
جلس الحبُّ على منجيرةِ الراعي يتيماً/
جلس النرجسُ في مرآته ؛
جلستِ الأرضُ على النهارِ/
جلس النهارُ فوق الأرضِ/
جلس الصمتُ علينا وعلى الأرضِ كما لو جلستْ
أرواحُ أهلِ الأرضِ في عيد جلوسِ الأرضِ/
جلستْ حيرتُنا ؛
جلستِ الغيمةُ فوق ظلها . .
وجلس العطفُ على الجميعِ . . ./

قلتِ لي . . . . . .
وقلتِ لي : . . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

كنتِ تقولين لي ، فيما أنا أُمشِّط الأرضَ بأصابعي ، وأَرضعُ حليبَ الأعشابِ الأخضر :

ـ هل تعرفُ ما تحت العشب؟ . .

وكنتُ أتوهّمُ أنني أعرف :

ـ ليس تحت العشب غيرُ الحلازينِ النائمةِ والديدانِ خمريّةِ اللون التي تتأهب لإطلاقِ الربيع في ميعاده .

لعلّكِ كنتِ تريدينني أن أرى ـ تحت العشبِ ـ ما يخصُّ قلبَكِ الدامي ، من رمادِ عظامِ الأموات . . والبقايا الباقيةِ من دموعِ أجدادكِ القديسين . .

لعلّكِ كنتِ تريدين أن أرى المغزى .

. . . وكنتُ أحاول أن أرى .

. . . . . .

. . . . . .

حاولتُ أرى المغزى :

كنتُ أحدّقُ في ما تحتَ العشبِ

وفي ما فوق الغيمةِ . . .

في الشوكِ الضاري والنعناعِ الشاحبِ ؛

أُطْلِقُ أسئلتي في أحشاءِ الصخرِ

لكي أتهجّى أسماءَ ملوكي وسعادتي .

ثم أقولُ لنفسي :

أعمى .

قلبي أعمى ، ويدايَ ، وعقلي .

أعمى كجميعِ الخلقِ

وليس لديَّ منَ النور سوى هذا الإزميلِ . . وخوفي ـ

خوفِ الحلزونِ . . .

. . . . . .

وكنتُ أحاول أن أُبصرَ :

كنتُ أشمُّ لهاثَ الأعشابِ

واسمعُ غصّةَ أجراسِ الأرضِ .

تركتُ لساني يَحفرُ في الطين لكي يتذوّق شهواتِ الموتى . .

ويديْ تقرأ في أنفاسِ الديدانِ شقاءَ الناسِ ـ الديدانِ . .

وروحي تشهقُ خارجةً من عينيَّ .

. .«وماذا أيضاً؟ . .»

لا شيء سوى النورِ . . وأنّي

لا أملكُ من أدواتِ النور سوى روحي

أُطْلقُها عاريةً تبحثُ عن مغزاها في قفصِ النورِ

فترتدُّ إلى حيرتها الأولى! . .

«ماذا أيضاً؟ . .»؟! . .

لا شيءَ ، سوى أن الناس وحيدونَ

حزينونَ ، ضِعافٌ ، ويتامى . .

يسعونَ إلى قفصِ الظلماتِ كما يسعى الأمواتُ إلى قفصِ النورِ! . .

ضعافٌ ، ضجرون ، يتامى وحزينونْ . .
يسعونَ إلى مغزى ما خلفَ النورِ . . فلا يَصلون العتبةْ . .
والأرضُ تدورُ بهم وعليهم ، ويدورون بها وعليها
فإذا ماتوا عرفوا
أنْ ليس لهم من مغزى خلف النورِ
سوى هذا النورِ . . وهذي الهضبةْ .

. . فإذنْ ، جلستِ أنتِ ، وجلستُ أنا ، فجلسَ الهواءُ .
ثم نظرتِ إلى فوق . . ونظرتُ أنا أيضاً .
ورأيتكِ تشيرين إلى موكبِ هواءٍ أسود . . يتزحلق هابطاً من أعلى السماوات إلى أعلى الأرض .
وقلتِ : هؤلاءهم أهلي . . ؛ فرأيتُ المغزى :

صورُ موتاكِ منقوشةٌ على سحابٍ داكنٍ ونيازكَ معجونةٍ بالدم .
ثم صار للنيازكِ هيئةُ رهبانٍ تدلّوا من حبالهم وحطّوا على التل .
ثم :
الرهبانُ ـ سوداً وطِوالاً ونحيلين ـ صاروا يهبطون صوبنا

من أعالي التل ، كرعاةٍ ، مدججين بالعصيّ والناياتِ وجلاجلِ فحولِ الماشية! . . وخلفهم نورٌ . . نورٌ طوفانيّ يجعل كل ما يتحرّك يبدو شبيهاً بأسماكٍ ترقص على أذيالها .

وأنتِ راكعةٌ على الأرض تختلجين من هذيانِ الحمّى .

ـ هل آتيكِ بماءٍ؟ . . بعنبٍ أو تفاحٍ أو . . .

هل أشعلُ لكِ ناراً؟ . .

يقول صمتكِ : لا . وأَنْصرفُ أنا إلى خوفي كما لم يخفْ بشريٌّ من قبل .

خائفٌ ، وغشيمٌ ، ولا أعرف كيف أصلّي .

فركعتُ إلى جانبكِ . . حجراً أبكم .

صار الرهبانُ أقربَ ، وبانت وجوههم فلم يعودوا رهباناً ولا رعاةً .

مجرّدُ أمواتٍ يهبطونَ التلَّ/

. . واقتربوا .

على مهلٍ ، كأنّهمو رعاةٌ يسرحون إلى غدير الماءِ .

واقتربوا .

علتْ أصواتهم فوق الرياحِ .

علا رنينُ نعالهم فوق الحصى . . وعلتْ هواجسهم .

سمعتُ أنينهم يعلو .
رأيتُ الموتَ تحت جلودهم وشممتُ رائحةَ الدموعِ .
رأيتُ غصّتهم . رأيتُ ندوبهم ودخانَ حيرتهم .
رأيتُ الريحَ تخرج من معاطفهم فتتّقد البروقُ .
رفعتُ كفّيْ في الهواء لأتّقي ريحَ الرعاةِ . . فلم أجد كفّيْ ، وذابتْ شهقتي في الريحِ . . . ؛
واقتربَ الرعاةُ . .
تقدّموا . وقفوا وراحوا ينظرون إليكِ . . ثمّ إليَّ .
ثم تقدموا ورموا معاطفهم على سور السماءِ وعلّقوا دمهم عليها (أبيضُ دمهم كحبر الزيزفونِ) . .
وكنتُ خلفك ممسكاً قلبي لئلاّ تسقط العبراتُ منهُ على الترابِ . فقلتُ : يا نفسي أعينيني عليّ . . ؛ فلم أجدْ نفسي .
وصارتْ جوقةُ الموتى على مرمى الكلامِ .
فقلتِ لي : . . . . . .

قلتِ كأنكِ تخاطبينَ الهواء :
هؤلاء هم أهلي ، جاؤوا يطالبون بنصيبهم من الميراث .
ـ يا جدّتي ، يا جدّتي ، الميراثُ تحوّل إلى تراب . والترابُ أطلعَ عشباً . والعشبُ أكلتْهُ الخراف . والخرافُ بعضها ذبحناهُ ،

وبعضٌ أكلتْهُ الذئاب . والذئابُ قتلناها . ولم يبق غيرنا ـ أنا وأنتِ ـ ونحن راحلان أيضاً .

: «هؤلاءِ هم أهلي . .» .

وكنتُ أراهم .

كنتُ أراهم كما لوْ أنني كنتُ أراهم حقاً .

عرفتُ أنني كنتُ أحلم . لكنْ . . لم يكنْ بوسعي أن أدفعَ غطاءَ الكابوسِ وأَخرج . فصرتُ أقضمُ أعشاباً مُرّةً وأعشاباً حامضةً . . وأتمتمُ في سرّي : بسمِ اللهْ . . بسم اللهْ . .

مع ذلك كان الأمواتُ يتقدمون ، خِفافاً كما لو أنهم هواءٌ يخطو . دونما خوف ، دونما عجلة ، دونما غضبٍ ولا كبرياء ، بل وكأنما دون أن يبالوا بما رأوه من خوفنا ونحن راكعان على الأرض .

فجأةً ، صاروا أمامنا .

ركعوا على التراب مثلنا وبدأوا ينوحون . كان نواحاً بلا ألم . . نواحاً شبيهاً بغناء موتى .

بعدئذٍ جلسوا .

جلسوا كما يجلس ضيوفٌ إلى مائدةِ ربيعْ .

ثم صارت المائدة .

جلسوا هادئين .

فقطْ كانوا يفركون أصابعهم بارتباكٍ فينكشف ما كانوا عليهِ من حياءٍ قديم/

جلسوا ففاحت الحسرةُ في الهواءِ . .

فاحتْ من جلودهم رائحةُ الماعزِ (ماعزٌ أبيضُ . .)

فاحَ الغيمُ مَن أنفاسهم . . وفاحت الدموعُ .

ـ «اقتربوا» .

فاقتربوا مني ومنكِ . امتدّت الأيدي إلى مائدة الربيع /أكلوا من زادنا الحزينِ/ باركوا اللقمةَ والماءَ ونسمةَ الهواءِ . ./

ثم قبّلوا الترابَ حيثُ جلسوا . . وناموا .

*

*

بعد وقتٍ قليل (وقتٍ أطول من دهر) . . أفاقَ الموتى .

. . . . . .

حين أفاق الموتى كانت الأرضُ قد أعشبت ، وصدحتِ الطيورُ ،

وحيث سقطتْ دموعُهم طلعتْ زنابقُ وأبواقُ رعيانٍ(*) وعبّاداتُ شمسْ . وكان الموتُ على أبدانهم قد صار له لونُ الورد .

(*) بوق الراعي : اسم لزهرة قد لا تكون موجودة .

«كيف صاروا أمواتاً؟ . .» ـ همستْ نفسي لنفسي .

التفتوا ناظرينَ إليّ كما تنظر جوقةُ أمواتٍ إلى صبيٍّ حيٍّ غشيم :

«كيف صرنا أمواتاً؟ . .» . . وصار لهاثهم يتدفقُ كغيومٍ دامية :

هكذا . . ؛ متنا .

متنا مذبوحين ، جائعين ، فقراءَ ، عرايا .

اعترفنا بحبّنا للنساء ، فذبَحَنا ذابحونا بنصالِ النايات . . فصرنا موتى .

هربنا من الضغائن إلى الجبّانات ، لنطفىء وحشتنا في ظلالِ رخامِ الأضرحة ، فظنوا بنا سوءاً وذبحونا على رخام الأضرحة . . فصرنا موتى .

خرجنا إلى الجبال ، إلى حظائر رعاةِ الأغنام ، ولطأنا كلصوصِ المواسمِ خلف أسيجةِ الحقولْ . أدركونا بالبلطات والمناجلْ . ذبحوا الطفلَ والمرأةَ والشيخَ والحارثَ والمغني والشاعرَ والراعي والطحّانَ والعاشقةَ والسكّيرَ والغزالةَ والوردةَ والتيسَ والبقرةَ وشجرةَ البلّوطِ والصخرةَ والنبعَ والهواءَ والورقةَ وحبرَ الأسرارْ .

غافلونا تحت سماء الليل ، نائمينَ على حصادِ صيفنا ، تحت أكواخِ غارٍ ورياحينَ ودفلى ؛ لا نحنُ رأينا ، ولا كلابنا نبحتْ

على أشباحهم (كلابنا التي كانت - إذا شمّت رائحةَ غريب - مزّقتِ الهواءَ بأنيابها) .

جـرّدونا من الدمِ والخواتمِ والغصّاتِ والقُبَلِ والأحلام ، وتركونا نترنّحُ في حيرتنا كأشباحٍ بلا أذرعٍ ولا رؤوس . . فصرنا موتى .

هربنا من الخوفِ إلى الموت : غرسنا مقابضَ خناجرنا في شقوقِ الجدرانِ وطعنّاها بصدورنا . . فصرنا موتى .

تركناكل شيءٍ وفرَرْنا صاعدين إلى فوق ، إلى سرير عذابنا الأزرق . لم نحمل خبزاً ولا ملحاً ولا ماءً ولا نبيذاً ولا ثمرةً ولا رداءً ولا قبعةً ولا منديلَ عرس . .

فقطْ : الذكرياتِ والندمَ وشهواتِ المغادرين إلى الله . . .

فـقطْ : مـوتاً داكناً ملفـوفاً على أجسـادنا الداميـةِ كلحـاءٍ أسود . .

وفقطْ : حنينٌ دامعٌ إلى حياةِ الحياة .

وحين صرنا موتى ، صعدَ ما ترون من أغلفةِ أجسادنا إلى فوقْ ، وأرواحُنا ظلت عالقةً بترابِ الأرضِ كأبواغِ ربيعٍ سرّيّ .

وها نحنُ نعودُ الآن . . لنستردَّ أرواحنا .

نعود كأمواتٍ ضجرين من فداحةِ موتهم . .

مثقلينَ بقصصٍ نريد أن نرويها

وأسرار نبوحُ بها

وخطايا نطلبُ الصفح عنها
وعذاباتِ حبٍّ قادتنا إلى الجنونْ . . .
لكنْ ، أيضاً : لا غضبَ ولا ضغائنْ .

. . . . . .

ولم أسألكِ : لماذا يحتفظُ الأمواتُ دائماً بهذا الحنين المرّ؟! . . لماذا لا يريدون أن ينسوا أنهم ماتوا؟ . . ولماذا يصرّون دائماً على تذكيرنا بما طلعَ على جلودهم من أعشابٍ وزهورٍ وفراشاتِ موت؟ . .

لم أسألكِ . . لأنني كنتُ خائفاً وخجولاً .

. . . . . .

«هؤلاء هم أهلي إذن؟»!! . . سمعتُكِ تنتحبين بلا صوت .

لم يجيئوا في طلبِ ترابٍ ونِعاجٍ ، بل جاؤوا ليُعيْدوا (على بروج الأكواخِ الأولى) رفْعَ أعلامهم القديمةِ التي ماتوا تحتها وهم يُنشدون . . .

جاؤوا يطلّون على حيرتنا . . حيرةِ الحياةْ .

فجأةً ، نهض الموتى . وابتسموا . . فابتسمتُ .

نهضوا واقفين وهم ينفخون في راحاتهم وينفُضون ما عَلِق بأكفانهم من ترابٍ وغبارِ طلْعٍ وشوكْ .

«هؤلاء حجّاجُ ذكرياتٍ عائدون إلى سبتِ أمواتهم» . . قلتُ لنفسي .

وفجأةً أيضاً ، حرّكوا الرياح حولهم وبدأوا يرتفعون في الهواءِ مثل بالوناتٍ منفوخةٍ بنورْ ، وهم يلوّحون لنا بأصابع شفافةٍ طويلةٍ ونحيلة . . شبيهةٍ بأعلامِ السفنْ .

ـ أرأيتِ يا جدّتي؟ . . الأمواتُ لا يريدون شيئاً .

ـ ولا نحنُ نريدُ شيئاً (قلتِ لي) . . حتى ولا ما تريده الخرافُ والسلاحفُ والقرود .

فقطْ . . نريدُ أن نحلمْ .

نريدُ ، حين نلتفت ، أن نرى عيونَ كائناتٍ أخرى تحدّق في القلبْ .

نريدُ ، حين تمتدُّ أصابعنا ، أن تلامس دفئاً . . وتأنسَ إلى طراوةِ جسدٍ حيّ .

نريد ، حين نتمتمُ أو نثغو أو ننتحبْ ، أنْ نعرفَ أنّ ما يخرج من فم الحيّ يصعدُ إلى ضمير الحيّ .

. . .وأيضاً : نريد أن نحجَّ إلى ذكرى .

*

*

أخيراً ، كان الأمواتُ قد ارتفعوا عالياً . . حتى تحوّلوا إلى

نقاطِ هواءٍ صغيرةٍ ذائبةٍ في هواءِ الهواءْ .
ثم لم يعدْ يُرى منهم شيءٌ غيرُ أصواتهم ، ورائحةِ غيمِهم ،
ورجْعِ غناءٍ أزرقَ يسيلُ من ثقوب السماوات .
ثم . . تحوّلوا إلى نور .

. . . . . .

. . . . . .

نظرتِ إلى فوقْ ، ونظرتُ أنا أيضاً .
وعلى غير ما يزعم الرحّالةُ والفلكيون
لم يكنْ يُرى من الأرضِ
غيرُ هضبةٍ عاريةٍ . .
وخلفها السماءُ
ونورٌ أعمى .

آذار ـ ٢٠٠٠

ضيوفُ الهواء...

«الإنسان غلطة
والعالم خُلقَ للأشجار . . .»

ماكس أوب

ليلة ٢٢ آذار ١٩٩٧ ، على كأسِ عرق صغير ، وجلبةِ أمطارٍ ورعودٍ وعواصف ، وغموضِ أسئلةٍ وهواجس وذكريات ، روى لي جدي أنه ـ في واحد من أحلامه الأخيرة ـ شاهد إخوته الميّتين (رحلوا قبل عقود طويلة بحيث ما عدنا نتذكر أسماءهم . .) . . وكانوا غاضبين!

تَوعَّدوه بأنهم سوف يهدمون بيته وبيوت أبنائه . . ليعيدوا بناء بيتِ ذكرياتهم القديم . عاتبوه نيابةً عنا جميعاً بسبب ما نفعله بالحياة ومخلوقاتها ؛ زاعمين أنهم قد أبصروا في أحلامهم (أحقاً أن الأموات يحلمون؟! . .) كيف أننا نعذّب الأرض ونروّع مخلوقاتها . أبصرونا (وهل يبصر الموتى؟) نقطع أشجار البلوط التي أورثونا إياها مما سبق أن ورثوه عن أجدادهم ؛ وأن واحدةً من أشجار الصنوبر التي أعدمها أحفادهم ـ حين انهارت على الأرض ـ تهشّم تحتها الآلاف من بيوض العصافير . . ؛ أبصرونا من هناك ، من علياء ظلام الموتى ، نشرّدُ أفاعي السقوف وحمامَ الشرفات . . ونهينُ بابونج الأسطحة! . .

أبصرونا . . وأبصرونا! كأنما كانوا يشمون في صَلَفِنا عماء القوة ورائحة دخان الموت! . . أَبصَروا . . ويبصرون!! . . . .

قلتُ لجدي : هذا حلم . وعليك بالنسيان . .

قال : لا . هذه رسالة . ورسائل الأموات لا تُمزَّق ، ولا تُهمَل ، ولا تُرد .

بعد ذلك بأسابيع قليلة ، تَذكَّر جدي أنّ عليه أن يخافَ ويتعبَ ويموت : فَتلَتْهُ رسالةٌ غير موثوقة قادمة من جهة الأموات! . .

وطرداً لـ ، أو خوفاً من ، خوفِ جدي من رسالة موتاه ، وخوفي من أشباحهم التي لازمتني طوال تلك الليلة ، كان لا بد لي من إعادةِ نسخِ هذا الحلمِ ـ الرسالةِ ـ الكابوس . . . مستعيناً عليه بقليلٍ من الحبر . . وكثيرٍ كثير من أنوار المصابيح .

. . وحدها المصابيح تخيفُ الموتى .

يرقدُ الميّتون إلى جانبي في السريرِ ولكنهم لا ينامونَ!
يرجونني أن أكون صديقاً لهم ورفيقاً بآثامهم .
يشهقون من الخوف مثلي
ويبكون مثلي
ويرتجفون من البردِ .
يرمون آلامهم فوق صدري كأني وِسادتُهم
ويقولون لي : لا تنمْ .
لا تَدَعْنا وحيدينَ .
لا تُبْقِنا في عراء الجنون الذي نتسكع فيهِ
فقد تعبتْ روحُنا وضجرنا من الموتِ .
خذنا إلى وردةٍ أو نهارٍ
وجَمِّلْ تعاسة أعيادنا بالأغاني . . .
أقول لهم :
أنتمُ الآن موتى ، فناموا . . .
يجيبونني بهدوءٍ :
بلى ، نحن موتى . . . ولكننا لا ننام كما يفعل الناسُ

نحن نقدِّس هذا الظلامَ الذي نحن فيهِ . .
ونشربه كالنبيذِ ،
نُقطِّر حَيْرتنا في عروق الترابِ
ونسهر تحت شراشفهِ السودِ كاليرقاتِ الخجولاتِ ،
نغزل أقمارَنا من حرير النعاسِ
ونَسْبح في نورها عزّلاً ، حكماءَ ، يتامى ، وحيدينَ . . .
نَنسى . . . ونُنسى .
ونفعل ما ليس يفعله غيرنا :
نعشق الأرضَ حيث ننامُ . . ونحرسها من جنونِ فضائلكم .
لا نخونُ ، ولا نتقاتلُ .
لا نتسلّى بإطلاق نيراننا في الهواء إذا ما ضجِرْنا
ولا نشربُ الدمَ .
لا نعتدي .
لا نُعدُّ الذبائحَ كي نتودّد للأولياءِ بها .
لا نُؤَلِّه رباً ، ولا نتقرّبُ ـ خوفاً ـ إلى وثنٍ .
نحن أهلُ التراب الجميلونَ
أسلافُ خيبتكم وشهودُ معاصيِّكم
طيبون ، عراةٌ ، ودودونَ . . ؛
لكننا

مضحكون قليلاً . . لأنّا نُدبِّر أعراسنا في الظلامِ
وحمقى قليلاً . .
لأنا نحبُّ الحياةَ التي تكرهونْ .

. . . . . .

. . . . . .

يرقد الميّتون إلى جانبي في السريرِ
ويُمضون أيامهم ساهرينْ
يقرعون نوافذَ صمتي إذا مانعسْتُ
لكي يسهروا حول رنّةِ صوتي
فلا تتفتّتَ أبدانُهم ضجراً .
يُقلقون نعاسي بأسئلةٍ لا تُجابُ
ويسترسلون معي في حوارٍ عجيب أحاول تفسيره بالكلام القديمِ فلا أتمكن من حلّ ألغازِه .
«ميّتونَ . .» ـ أقولُ لنفسي لأَصْرفها عن جنونِ كوابيسها ـ
ميّتونْ . .
غامضونَ قليلاً . .
ضِعافٌ قليلاً . .
خجولون . . (لكنهمْ لا ينامون! . .)
مرتبكونَ . . كأنهمو خائفون على موتهم
أو كأنهمو لا يطيقون صبراً على الصمتِ! . .

قلتُ لهم ، فجأةً ، وأنا أتلعثم من شدّة الخوفِ :

ما شأنكم بي أنا؟ . .

ولماذا تقولون لي كل هذا الكلام الذي لا يُفَسَّرُ؟ . .

قالوا : سنَهْدمُ هذا الجنون الذي ترفعون ركائزهُ

فيقلِّل من هيبة الأرضِ . .

سوف نزلزل آياتكم كلها

وسنرفع فوق خرائبها قمراً تستحمُّ الفراشاتُ في ماءِ فِضّتِه

وكنائسَ تلعبُ فيها الطيورُ . .

سنَهْدم أبراجكم كلها ،

ونَدكُّ حظائركم كلها . .

الثكناتِ ،

الخنادقَ ،

أقبيةَ الطائراتِ ،

الحصونَ ،

المتاريسَ ،

أنظمةَ الخوفِ . . . .

سوف نخرّبُ مِصيدةَ الموت حيث تعيشون أنتم

لكي تفهموا ما تُعِدُّ الحياةُ لأبنائها .

أنتمو بشرٌ طارئون على الأرضِ

لا تدركون المغازي التي في الكلامِ

ولا تفهمونَ الترابَ الذي تأكلونَ
ولا تستطيعون أن تَبْلغوا حكمةَ العشبِ .
أنتم غريبون حقاً ، ولا تستحقون نعمةَ هذي الحياةِ التي
تتهشم بين مخالبكم ونعالِ سلاطينكم .
أنتمو بشرٌ تقتلون الحياة لتلهوا بأنقاضها
تُفزعون الذئابَ ،
تَهُدّون ما عمّرتْهُ العصافيرُ كي تقتلوا وقتكم ،
تهدمون القرى والبيوتَ
وتمشون في الأرض مَشْيَ ملوكٍ سكارى ،
تكرهون الضباعَ وتحتقرون المواشي ،
تأكلون لحومَ النساءِ وتفترسون الجمالَ الذي تعبدونْ .
وتحطّون من قيمة الدودِ وهْو شبيهٌ بكم :
هو أوّلُ أسلافكم ، والوريثُ الأخيرُ .
تخيفون أشباهكم
وتخافون أنفسكم خوفَكم من ملاقاتنا . .
: أنتمو بَشَرٌ غامضونْ! . .

بشرٌ؟ . . والترابُ بَشَرْ
والطيورُ التي تتسكع تحت السماء بَشَرْ
والدوابُّ التي تتشمّسُ فوق البيادر خاليةَ البالِ ،

أغنامكم ،
سنديانُ بساتينكم ،
حَجَلُ الصخرِ ،
عِطرُ النباتاتِ ،
كلُّ جميلٍ على هذه الأرضِ من شأنه أن يكون
صديقاً لأرواحكم وشريكاً لكم في الحياةْ . .
أَلذئابُ بَشَرْ
والغرابُ بشرْ
والصنوبرُ ، والتينُ ، والماءُ ، والأفعوانُ ،
ورائحةُ الوردِ ، والحلزونُ . .
وما تجهلونْ
كلّهُ بشرٌ مثلكم .
كلُّ شيءٍ تحطّون من شأنهِ بشرٌ مثلكم . . وشبيهٌ بأرواحكم ،
فيهِ منكم حنانٌ قديمٌ وتَوْقٌ إلى أوّلِ النورِ . .
فيهِ جميع فضائلكم
فيه شهقتكم وبَشاشةُ أرواحكم لثغاءِ الطفولةِ
فيهِ عواطفكم كلها :
فيه حَيْرُتكم
فيه فطنتكم

فيه بعضُ حرارةِ أنفاسكم حين تحتضنون النساءَ
وشهقةُ أبدانكم للجمالْ . .
فلماذا إذنْ
كلُّ شيءٍ على الأرض يخبو ويلفظ أنفاسه تحت أقدامكم
(حيثُ لا ينبتُ الأقحوانُ ولا يطلع العشبُ)!! . .
تَخْطون فوق أديم الحياة فترتعدُ الظلماتُ وتبكي العناصرُ
ترتجف الأرضُ خوفاً على نفسها وتئنُّ الصخورُ! . .
لماذا إذنْ
تَرْضَعون حليبَ الجمال من الأرضِ
ثم تفضّون سُرّتها بالحرابِ كأنّ لكم أمهاتٍ
سواها؟! . .
لماذا . . .
ترفعون معابدكم للحياةِ كأنكمو ترفعون ضريحاً لها؟! . .
ولماذا . .
تُجْهِزون على خفقةِ الروحِ فيها
وأنتم على بابها رُسُلٌ أو رعاةْ؟! . .
تسهرون على ما تبقّى لكم من جمائلها في ظلال الشموعِ
كمنْ يسهرون على موتهم . .
وتنامون نومَ الطغاةْ! . .
وتُسمّون هذا حياةْ؟! . . .

فلماذا إذنْ؟ . .
أيُّ أوثانكم هو هذا الإله الضريرُ الذي يقضمُ النورَ
كي يتجشّأهُ عتمةً ودخاناً! . .
لماذا إذنْ
تحرثون السماوات بالسيفِ
كي تُشهِدوا الأرضَ أن البطولةَ تَطْلعُ من بذرةِ الخوفِ
والنورَ يبزغُ من شهقةِ الضعفاءِ
وقمحَ الرضا يتفتّح تحت نعالِ الطغاةِ
ويشربُ من غصّةِ الخائفينْ؟! . .

. . وإذنْ فانظروا
إجعلوا قلبكم يقظاً في الظلامِ
لكي تسمعوا نأمةَ الكائنات الضعيفةِ تشهقُ في نومها
أنظروا . . . حيث ترعى الحلازينُ في باطن الأرضِ
كي تفهموا لوعةَ الطين من حولها . .
أُنظروا . . حيث لا تنظرونْ
في الظلام الذي هو أنتم وقد صِرْتُمو خالدينْ
في الهواءِ أنظروا ،
في الصخور الجليلةِ ،
في النورِ ،

في عِفّة الماءِ ،
في جريان الزمانِ السخيّ على الأرضِ . .
في الأرضِ ،
في كل ما يتبدّى لقلبِ المسافرِ من شجنٍ وحنينٍ
. . وفي الأرضِ ،
في حيرةِ الأرضِ ، في ندمِ الأرضِ : في الأرضِ . .
حيث تنامُ العظامُ وتغزلُ أسرارها من حرير الظلامْ
. . وانظروا في الظلامْ .
في الظلامِ . .
لكي تبصروا كيف يزدهرُ العشبُ فوق سطوحِ مقابرنا
وتفوحُ عقولُ النباتات من حولنا كالأريجِ السماويّ ،
حيثُ تذوبُ قلوبُ الفراشاتِ في النورِ . . كي تُبهجَ الأرضَ ،
حيثُ ترنُّ نعالُ الثعالب فوق الحصى . . فتُهدهدُ غفوتَنا ،
والطيورُ تَمدُّ مناقيدها في الشقوقِ لتلتقطَ الحَبَّ من فمنا ،
والأفاعي تدبُّ الهوينا الهوينا . . ؛
أنظروا . .
كيف أنّ الذئابَ تنامُ على سقفِ أحلامنا
والدواري
لا تخافُ مجالسةَ الميّتينْ . . .

أُنظروا حيثُ لا تنظرونْ
: كلُّ شيءٍ على هذه الأرضِ يحمل بعضَ رسائلنا للحياةِ
فلا تغلقوا قلبكم دونهُ . .
طرقاتُ الجبالِ التي أبدعَتْها شجاعةُ أقدامنا
عَرَقُ الحُبّ فوق حوافِّ البساتينِ
تَرضَعهُ الأرضُ من روحنا وتُقطِّره في عروقِ النباتاتِ
لألأةُ الزيزفونِ : طلاوةُ أنفاسنا في مهبّ الظلامِ
نحيبُ الجماداتِ : خفقةُ أسرارنا في نسيجِ الترابِ الكفيفِ
وأسئلةُ الورد عن عطرِ أجسادنا .
نحنُ أحياءُ في كلّ شيٍّ :
تسمعون رنينَ معاولنا في الصخورِ
تشمّون رائحةَ الصبرِ في الطينِ
تكتشفونَ الظلالَ التي نقشَتْها على الأرضِ أجسادُنا
تهتدون بعطرِ فوانيسنا في الليالي
وتمشون فوق خطانا القديمةِ . . . . ؛
أحياءُ في كل شيءٍ ، سوى . .
أننا ميّتونْ
لم نَعُدْ قادرين على الخوفِ
ليست بنا شهوةٌ للنساءِ
ولا عاد يمكن أن نشرب الخمر أو نأكلَ الخبزَ

لكننا . . حاضرون وأحياءُ
نرقدُ تحت هواجسكم ، ونشاطركم نومَ من لا ينامْ
نستعينُ على الموتِ بالظلماتِ وأبخرةِ الذكرياتِ
فنخدعهُ . . ونعود إلى أهلنا الأوّلينْ .
نقرع الليل بالزفراتِ ، ونسألكم أن تمدّوا إلينا الأيادي
فلا تستديروا إلى حيث لا يبصرُ الميْتُ موتاهُ . .
لا تَفْزعوا من مجالسةِ الغرباء . . . ولا تخذلوا الضيفَ .
لا تفزعوا .
لا تُعِدّوا طعاماً ولا توقدوا النارَ :
نحنُ ضيوفُ هواءٍ
نعيش على ثمرِ الذكرياتِ ونشبع من خبزها المرِّ . .
لا تفزعوا .
لا تثيروا ضجيجاً ، ولا تقرعوا جرساً .
نحنُ أحياءُ في كل شيءٍ
ولكننا . . ميّتونْ .

لا تخافوا إذنْ
لا تسدّوا علينا الطريقَ لأنّا سنَدْخل من سُمِّ أرواحكم .
سنفاجئكم نائمينَ فنَنْسَلُّ تحت حرير النعاسِ .
سنأتي كأنّا هواءٌ يطوفُ

فلا تسمعونَ خطىً
لا تشمّونَ موتاً
ولا تبصرون سوى الليلِ . . .
ناموا إذنْ . .
واحلموا . .
وأتيحوا لأرواحنا أن تهبَّ قليلاً على نومكم
وتُفسِّرَ ما كان من أمرها كل هذي السنينْ
أحلموا ، تحت سقف الظلامِ ، لكي تبصرونا
ولا تَحْتَموا من عواصفنا بالدخانِ
لأنّا سنبصركم في دخان الأنينْ .

سنبصركم في التراب الذي هو نحنُ وقد أَنضجَتْهُ خميرةُ أنفاسنا . .
في الترابِ المجدَّدِ . .
في مائهِ . .
في حِليِّ عناصرهِ ، وعناقيدهِ ـ الزَهْرِ . .
ناموا إذنْ واحلموهُ :
ترابٌ لكم وعليكمْ . .
ترابٌ . . إذنْ فكلوهُ
ترابٌ . . إذنْ فاثملوا من رحيقِ عناصرهِ الدامياتِ . .

ترابٌ . . إذنْ فاطحنوا عظمهُ واجعلوه تراباً . .

ترابٌ هو الجسدُ ـ النورُ

جدُّكم ـ النورُ

بيتكمُ ـ النورُ . . .

ناموا إذنْ .

ـ سننامْ .

سننامُ ، ولكنْ . . لمن سوف نترككم يا رعاةَ الظلامِ؟! . .

ـ أتركونا لسيِّدِنا النورِ . .

: أَلنورُ شهوتنا

النورُ حرقةُ أجسادنا

أَلنورُ ســقفُ الزمــان الذي يتــداعى . . فنسندهُ بالظلامْ .

أُتركونا لهُ . .

عُزَّلاً ، وُدعاءَ ، يتامى ، وحيدينَ

نَنْسى . . ونُنسى . . .

أتركونا لهُ .

نتداوى بهِ في الظلامِ
ونرضعهُ من شقوق الظلامِ
ونعبدهُ في ظلامِ الظلامْ . .
ثم نتركه للظلامِ . . ونمضي
إلى حيث يأكلنا النورُ . . .

آذار ـ نيسان ١٩٩٧

ساعة الذئب(*)

إلى فاتح المدرس . . وآخرين

هكذا ، دونما سببٍ واضح ، أشعر الآن أني حزينٌ
وأني على وَشَكِ الموت . . والأرضُ قبري ،
وأن رفاقي جميعاً .
رحلوا . . تاركين زوابعَ أنفاسهم في كؤوسِ النبيذ المريرةْ
هكذا ، دونما سببٍ ، أشعر الآن أني مريضٌ من الحزنِ .
والأرض تكمل دورتها في سديم التعاسةِ . . زرقاءَ . . سوداءَ . .
مثخنةً تحت قبّةِ هذي السماء الضريرةْ
وأنا جالسٌ فوقها كالرسول اليتيمْ
أتصفَّح آلامها . .
وأَعدُّ ثواني الحياة الأخيرةْ .

(*) «ساعة الذئب» حسبما يقول إنغمار برغمان ، هي الساعة التي يموت فيها معظم الناس ، وفيها معظم الناس يموتون . .

هكذا ، دونما سبب ، أشعر الآن أني حزينٌ . . وأني
دونما أسفٍ سوف أقطع هذا المجاز الذي يوصل الغرباءَ إلى تربة الغرباءِ :
أَعدُّ خطاي على ورق الذكرياتِ . . وأمضي
ساهماً في طريقي
أتلفّتُ حولي كمن يتوقع أن يجد الذئبَ مختبئاً تحت أنفاسه
فأفكر أني . .
لم يعد لي مكانٌ على هذه الأرض أبني ضريحي عليهِ
وأن صديقي (صديقي الذي في كتاب الرسولْ . . .)
سوف يمسكني فجأةً من ذراعي لكي يدَّعي أنني أنا قابيلُهُ . .
ثم يطعنني في ظلامي ويمضي إلى جهةِ التلّ مستبشراً بالحياةِ . .
يعاتبني . . ثم يمضي ،
ويندبني . . ثم يمضي ،
ويتركني . . ثم يمضي
إلى جهةِ التلِّ . . كي يقطف الورد عن أمهِ
ويؤدي الصلاة على العشب كي يصفح الله عني
ويرحمَ إخوته الميتينْ! . .

ألهذا إذنْ أشعر الآنَ أني حزينٌ
وأني على وشك الموتِ ، مثليَ مثل المسيحِ ،
وأن قُضاتي يدورون حولي بلا ندمٍ ، وهمو يغسلون أصابعهم من دمي
ويُعدّون لي الشمعَ كي يطردوا وحشةَ الموتِ عن موتهم! . .
يذرفون الأنينَ على وحشتي .
يشهقونَ .
يطوفون حول نعاسي وقد أوقدوا خوفهم في مباخرهم
وأضاؤوا مصابيحهم فوق رأسي لكي ينعسوا تحت ظلمتها . .
وأنا ساكتٌ في السديمِ الأصمّْ
هادىءٌ وضعيفٌ . . كما شاءني الله . .
منكسرٌ تحت آلام نفسي ،
أراقبهم ملكاً ملكاً ورسولاً ورسولاً ،
أميز أصواتهم . . ملكاً ملكاً ورسولاً رسولاً ،
وأبغضهم . . ملكاً ورسولاً .
وأُبصرهم في منامي كما يبصر المَيْتُ قاتِلَهُ .
أتبيَّنهم ، وأرى الموت ينضح من خوفهم .
أَتصفَّح أعناقهم وأَعدّ شرايينها وهي تلمع تحت الظلامِ .
أَعدّ أصابعهم ، وخواتمَ أعراسهم ، وسواعدهم ،

والعناكبَ سوداءَ تسرحُ فوق مناكبهم . وأراهم . .
أَعدّ نقوشَ خناجرهم ورنينَ المفاتيح ،
أقراطَهم ،
خُوَذَ الجنرالات تفضح وحشتهم ،
ضجرَ الأنبياءِ ويأسَ اللصوصِ ،
جسارةَ أفكارهمَ وصليلَ عقائدهم ،
خوفَهم من ظلامي يهبّ على نومهم في الظلام ، تمائمَهم تتأرجح لامعةً في الظلام ، طهارتَهم في الظلام ، مكائدَهم ، صمتَهم يتوهج حول فخاخِ الثعالبِ ، ألوانَ أثوابهم في الهواء الذي أنشأوه لأنفسهم في أعالي الهواء . . ؛ أَعُدُّ الهواء . أعدّ خدوشَ أظافرهم فوق لحم الهواء . أشمّ قتامةَ أنفاسهم في قتامةِ جسمِ الهواء . أشم الهواء الذي في الهواء . أشم التباس الهواء . أشم سواد الهواءِ الذي . . لا يُشمّ .
وأرى الحسراتِ التي . .
وأميز لونَ السماء التي . .
والنجومَ التي كنتُ أَوقَدْتُها دمعةً دمعةً تحت سقف السماء التي . .
وأَعدّ ثواني الحياة التي ألهمَتْني السعادةَ قبل ثلاثين موتاً . .
أَتنسَّمُ عطرَ النساء اللواتي . .

كنتُ أحببتهنَّ بلا أملٍ
ورفعتُ لهنّ السماواتِ مسقوفةً بالألمْ .
غير أني ، هنا ، تحت سقف السماء التي لا تراني . .
لم أزل واقفاً كالرسول اليتيمِ . .
أغالبُ ضعفي
وأبكي على حيرة الكائناتِ بكاءَ مسيحٍ على نفسهِ
وأَعدُّ رمادَ الثواني . .
قلتُ : لا تبكِ أيّوبُ . .
ثم شددتُ لحافي على غصّتي . . كي أغطي هبوب الندمْ
ورأيتُ الألمْ .
. . . . . .
لا تقل لي إذنْ : «ما الذي يجعل المَيْتَ يحزنُ؟ . . .» . .
لا شيءَ . لا شيءَ يُحزنني غيرُ نفسي .
ولا شيءَ . لا شيء يحزنني أبداً .
هكذا ، دونما سببٍ واضح ، صرتُ شخصاً حزيناً .
صار لي كتفان حزينانِ ، وجهٌ حزينٌ ، وقلبٌ حزينٌ ، وجسمٌ . . .
وصارت عظامي
تتجعّد من شدّة الحزنِ .
صرتُ بلا سببٍ ، أَتنصَّتُ تحت الظلام فأبصر مادّةَ حزني .

أميز ملمسَهُ في نسيج الهواء الكفيفِ ،
أرى وجهه يتلألأ خلف ظلالِ المعاني كما تتلألأ فاكهةُ الموتِ ،
أسمع أنفاسه تترقرق في غصّة الحبر . . . زرقاءَ . . . خضراءَ
مثلَ لهاثِ العصافير تَسْبحُ في موتها .

هكذا . . . صرتُ شخصاً حزيناً ، يكابد حزناً حزيناً .
وصرتُ أرى الله في هيئةِ امرأةٍ هدّها الحزنُ . . . تبصرني من بعيدٍ فتشهق مذعورةً ، ثم تهرب مني كأنْ لا ترى غصّتي تحت سقف الحياة الحزينْ . . .
هكذا . . . دونما سببٍ! . .
فانكفأتُ إلى ليلِ نفسي
خائباً وضعيفاً . . . كما شاءني خالقي . . .
. . . وفقدتُ اليقينْ .

فـ . . . لماذا إذنْ أشعر الآن أني حزينْ؟ . . .
ألأني تعبتُ من السير في جنتي ـ جنةِ الميّتينْ . . .؟ . . .
أم لأني
ضقتُ ذرعاً بنفسي
وضجرتُ من الشعر ـ فاكهةِ الميّتينْ . . .؟ . . . .

أم لأني
صرتُ أسمع في غصّةِ الطينِ غصّةَ أحفادِه
فأرى ندم الله؟! . . . أمْ . . .
أم لأن الحنينْ؟ /أسودٌ
والقصيدةَ زرقاءُ (زرقاءُ مثل الخطيئةِ)؟ . . .
زرقاءُ! . . .
زرقاءُ روحي . أغانيّ زرقاءُ . صمتيَ أزرقُ . تنهيدتي . ضجرُ الحب أزرقُ . آلام نفسيَ زرقاءُ والخوفُ أزرقُ . وحشةُ قلبي . جمالُ الخطيئة . لونُ الهواء . نحيبُ العصافير أزرقُ . آنيةُ الورد زرقاءُ والعطر أزرقُ . صوت المرتّل . ثوبُ الفتاةِ . ضفيرتها . تختها . شهقةُ الدم طالعةً من شقوقِ بكارتها . تاجُ مأتمها . . .
ساعةُ الذئبِ زرقاءُ . . . والذئبُ أزرقْ! . . .

غير أن الحنينْ / أسودٌ .
والقصيدةَ سوداءُ! . . .

: (هذا دواؤكَ أيّوبُ ، هذا دواء الندمْ! . . .) .

وإذنْ ، كيف يمكنني الآن ألاّ أكون حزيناً . . .
وأنا أتخبّط في هذه الكلمات وأسألُ :

ـ ماذا تخبّىء لي ساعةُ الذئبِ؟ . . .
ماذا يخبّىء لي صاحبي الذئبُ؟ . . .
ماذا يخبىء لي الشعر تحت فخاخ الثعالبِ؟ . . .
ماذا يخبىء لي ملكي ورسولي؟ . . . وماذا يخبىء لي الوقتُ؟ . . .
ـ عطرَ الحنينْ . . .
لمداواةِ آلامِ نفسي ،
وحبرَ الشقاءِ . . .
لأرفوَ أسمالَ هذا الخريفِ الحزينْ .

هكذا ، دونما سببٍ ، يتشقق قلبي . . .
فأبصرني عارياً كمسيحٍ يطوفُ على التلِّ . .
كفّاه كفّايَ . حيرته حيرتي . صوته صوتُ نفسي وقد نَعِسَتْ . فمهُ . كتفاهُ الضعيفان . عيناه . غصّتهُ . يأسهُ . شفتاه . أصابعهُ . روحهُ الداميةْ! . . .
فأجرُّ خطايَ إلى مأتمي . . .
خائفاً ووحيداً .
غنائيَ يعكسُ خوفي ؛ وروحي
ذَبُلتْ في يديَّ . . . كما يذبل الوردُ في الآنيةْ .

ألهذا إذنْ أشعر الآن أني حزينْ! . . .
ألأن القصيدةَ ـ فاكهةَ الموتِ ـ سوداءُ تحت لساني؟ . . .
أم لأن الحنينْ . . . . .؟!
ـ بل ، لأن الحنينْ . . .
حيلةُ الخائفينَ من الموتِ . . .
. . . . . .
قل لي إذن :
ما الذي يبصر الميتُ تحت الكفنْ/
غيرَ أوهامه؟! . . . .
ما الذي يجد الميتُ تحت الكفنْ/
غيرَ حيرتهِ تتدفّقُ زرقاءَ فوق سرير الزمنْ؟! . . .
لا تقل لي : يرى نفسه ، أو يرى اللّهَ فيها . . .
لا تقل لي : ويسمع في نومهِ خفقانَ الزمنْ . . .
يتسرّبُ من قلبهِ ويسيل على الليلْ .
قل لي : يرى خوفه طافياً في وعاء الزمنْ . . .
ويرى الموت . . . أبيضَ . . . كالنورْ . . .
. . . . . .
. . . . . .
قل لي إذنْ :
ما يؤرّقُ روحَكَ في الموتِ . . . غيرُ الندمْ؟ . . .

ـ شهوتي للجمال الضعيف . . . وسحرُ الخطيئةِ .
قل لي . . . وماذا يؤرّق روحك غيرُ الندمْ؟ . . .
ـ أن أرى ما يرى الميْتُ في نومهِ :
الروحُ جائعةٌ . . وجمالُ الخطيئةِ يخبو .

وقل لي : . . . . . .
ـ أرى ما يرى الميْتُ :
ليلٌ يسيلُ على الليلِ ؛ أسئلةُ الموت تدفع أسئلةَ الموتِ . . .
قل لي ، وماذا؟ . . .
ـ أرى ما يرى الميتُ في نومه :
الأرضُ عمياءُ ، والنور أعمى .
أرى الله ملتبساً في عقائدهِ . . . وأرى رُسلَ الله يبكون أنفسهم في مهبّ الندمْ .
وأرى قسوةَ الخوفِ في ضجرِ الكائناتِ . . .
أرى الضعفَ مُنْتَبَذاً . . . والجمالَ حزيناً! . .
أرى كيف تطهو العدالةُ لحمَ الحياةِ بملحٍ ودمْ! . .
وأرى الأرض طافيةً في خرائبِ دمْ :
عشبُ نيسانَ . . . دمْ .
ألعصافير فوق عيونِ البنادقِ . . . دمْ .

ذكرياتُ الطفولةِ . . . دمْ .
شهوات المحبّينَ . . . دمْ .
شهقةُ الناي في رئةِ الناي . . . شهقةُ دمْ .
زهرةُ الأرضِ . . . فكرةُ دمْ .
غصّةُ الناس . . . غصةُ دم .
الحقيقةُ . . . حيلةُ دمْ .
كلّ ما تلمس اليدُ فوق الترابِ . . . خزانةُ دمْ .
زَوَغانُ الخلائق في الأرض سعيٌ إلى حقلِ دمْ .
والعدالةُ . . . ميزانُ دمْ .

فلماذا إذنْ لا أكون حزيناً؟ .
لماذا إذنْ؟ . . .
ولماذا أداوي تعاسةَ نفسيَ بالشعر . . . وهو خلاصةُ دمْ؟ . . .
ألأنّ الألمْ/
شهوتي ودليلي؟ . . .
أم لأني أرى في الألمْ
صرخةَ الله يبكي على نفسه في سماواتِ دمْ؟ . . .
أم لأن الشقاءْ/
لُقْمةُ الروحِ؟ . . .
أمْ؟ . . .

يا إله السماءْ . . .
يا إلهي الذي كنتُ أَرضعتُهُ حيرتي في أعالي السماءْ . . .
رُدَّني خائباً وضعيفاً كسابق عهدي .
رُدّني . . . حجراً في العراءْ .
رُدّني . . . زهرةً في إناءْ .
رُدّني دودةً ، سلحفاةً ، غزالاً ينطُّ على الصخرِ ،
قُبّرةً تتنزّه عمياءَ فوق هواءِ الحقول المقطَّرِ . .
جرواً على بابِ راعيهِ ينبح من ضجرٍ . . .
رُدَّ قلبي الضعيفَ إلى جسمهِ . . .
رُدّ لي العطفَ . رُدّ الجمالَ القديمَ ، وشوقَ اليتيمِ إلى الحبِّ .
رُدّ القصيدةَ زرقاءَ (زرقاءَ مثلَ الخطيئةِ فوق سريرِ الخطيئةِ)
رُدّ حنانَ النساءْ . . .
وضعفَ النساءْ
ورائحةَ الورد تنضحُ غامضةً من جلود النساء .
ورُدَّ إلى الروح بعضَ الألمْ . . .
رُدّه شاهقاً وجليلاً . . . لكي نتعرّف فيهِ على نفسنا
حين تَغْربُ شمسُ الحنانِ عن الأرضِ .
رُدّ الألمْ

ناصعاً وكريماً . . . كما يشتهي الشعراءْ .
رُدّه طاهراً . . . كحليب النساءْ .
أو أعِدْني إلى خالتي الشجرةْ . . .
غيمةً تتلألأ تحت لحاءِ الحياة الكتيمِ . . .
كما تتلألأ فاكهةُ الموتِ . . .

. . . . . .

. . . . . .

قل لي إذنْ : أهو الخوفُ ،
أم هي فاكهةُ الموتِ؟ . . .
- بل هي فاكهةُ الموتِ يُنضِجها الخوفُ تحت قميصِ الزمنْ .
- أم هو الخوفُ؟ . . .
- ألخوفُ عِطرُ القصيدةِ
والموتُ شكلُ الزمنْ .

ربيع ١٩٩٩

محنة كاليغولا

أو «سيرة ذاتية للطاغية الطيب...»

«يلزمني مذنبون . .» ـ كاليغولا ـ ألبيركامي

لا ، قفوا . لستُ ربّاً لكي تعبدونْ . . .
لستُ ربّاً ، أنا بشرٌ مثلكم .
لستُ من علّقَ الأرض تحت السماءِ وزيّنها بنجومٍ وشمسينِ .
لستُ الذي جعل الوردَ والماءَ والخيلَ والزيزفونَ وريشَ الطيورِ
وجمَّلَ أحلامكمْ بالنساءِ الجميلاتِ . . .
لستُ سوى «كالِغولا» الحزينْ
عابدِ الخمرِ والشعرِ والفلسفةْ . .
كالغولا الذي ـ مثلكم ـ كان يبكي إذا لسعتْ قلبَهُ امرأةٌ
ويخافُ من الموت خوفَ النعاجِ إذا شمَّ رائحةَ الموتِ .
لا . لستُ ربّاً . ولكنني بشرٌ صالحٌ وحزينْ . .
بشرٌ هَدَّهُ اليأسُ .

كنتُ صبياً وحلواً

ولي هفواتٌ وأسئلةٌ وخطايا . . وكنتُ أُحِبْ .

كان لي ألفُ قلبْ

لاحتمالِ جنون الحياةِ . .

وألفٌ لحبّ الحياةِ . .

وألفٌ لتمجيدها وعبادتها . . .

ألفُ قلبْ! . . .

مثلكم ، كنتُ أبكي وأحزنُ .

كنتُ أخافُ وأشقى وأتعبُ . .

كان صداعُ الجمالِ يمزّق روحي إذا هبّتِ امرأةٌ في دمي

وأنا أتنزّه في ظلِّ شهوتها .

كان قلبي يئنّ إذا شهقتْ ، ويئنّ إذا ضحكتْ ، ويئنّ إذا أومأتْ ، ويئنّ إذا حرّكتْ رأسها فوق صدريَ فيما أنا أتنفّسُ أعضاءَها في السريرِ وأنعسُ بين يديها

مثلكم . . .

لم تكن بعدُ قد عصفتْ بثيابي رياحُ الجنونْ .

مثلكم : لبقٌ وحكيمٌ . أغنّي وألعبُ ، أحتارُ ، أشهقُ ،

ألهو ، وأسهرُ تحت النجومِ لأسألها عن مصيري .

مثلكم . . كنتُ أقصدهُ في صلاتي لكي يحفظ الله روما . .

وأعاتبهُ في صلاتي . . إذا خذلَ اللهُ روما . .

وأشكرهُ دائماً .

مثلكم : كنتُ أحلمُ ما تحلمونَ ، وأبغضُ ما تبغضونَ . .

وكنتُ - كأني أُطلُّ على الأرضِ من خلف أجفانكم -

أتسلّقُ سور الحياةِ لكي أتنسّمَ لألاءَ نعمتها

فأرى ما ترونْ . . . . :

جنَةٌ تتفتّحُ أبوابها

قمرٌ طائشٌ يتسكّعُ تحت حرير السماواتِ . . أزرقَ . . أبيضَ . .

أرضٌ مدلّلةٌ تترنّم تحت نِعالِ البغالِ السعيدةِ مسحورةً بالجَمالِ . .

وشمسٌ تصبُّ عصارةَ أحشائها فوق أسوارِ روما العظيمةِ . .

. . والحبُّ في كل شيءْ .

ثم ، في لحظةٍ واحدةْ ،

ذهبَ الحبُّ فانسدّتِ الأرضُ دوني

وهبَّ الجنونُ عليّْ . .

فتفقّدتُ نفسي : ضميريَ ، عينيّ ، قلبيَ ، أهواءَ روحي العفيفةْ . . .

كلها أكلتْها رياحُ الجنونِ

ولم يبقَ لي من أحابيلها غيُر أسلحتي ويَدَيّْ! . .

قلتُ لي : ذهبَ الحبُّ!! . .

ماذا إذنْ سوفَ تعبدُ يا كالغولا الشقيّْ؟ . .
قوّةَ العرشِ؟ . . أم قوّةَ الذهبِ المرّ؟ . . أم قوّةَ الموتِ؟! . .
: بل قوّتي ـ قوةَ الله فيّْ .

فجأةً نهضَ الخوفُ ما بيننا : (الخوفُ مِصْيدةُ الموتِ . .)
أبصرتكم خائفينَ ، فقلتُ لكم :
لا تخافوا ، أنا بشرٌ مثلكم .
ثم أبصرتكم خائفينَ . . فحذّرتكم :
لا تخافوا ، أنا لستُ ربّاً لكي ترهبونْ . . .
ثم أبصرتكم خائفينَ . . . فخفتُ عليّْ! . .
قلتُ : يا كالغولا ، لقد بدأتْ محنةُ الناسِ . . فليشهدِ الناسُ! . .
قلتُ : إذنْ ، بدأتْ .

لا ، احترسْ كالغولا ، احترسْ ـ قلتُ لي ـ ونظرتُ إلى فوقُ
أسألُ عمّا أعدّتْ سمائيَ لي تحت برجِ الجنون
فلم أرَ إلاّيَ فيها . .
وصوتي يرنُّ على صخرِ أبراجها دامياً . .
ويؤنّبني من أعالي الفَلَكْ . .
قال لي : الويلُ لكْ . .

قلتُ لي : الويلُ لكْ . .

قال لي : كالغولا احترسْ . .

إن من صار يخشاكَ يمكنُ أن يقتلكْ .

. . . . . .

هكذا نتساوى إذنْ! . .

هكذا نتساوى فنغدو شريكين في محنة الظلماتِ :

تخافونني فأخافُ! . .

إذنْ نحنُ ، في محنةِ الظلماتِ ، سواسيةٌ :

عابدٌ . . وإلهٌ! . .

سواسيةٌ :

هكذا ، الآنَ ، مـــا عـــاد يمكنني أن أَردّ لكم من عطايا السماواتِ شيئاً ،

ولكنْ . . أردُّ لنفسي أُلوهيةَ الرجلِ المستطيع

لكي أتسلّى بحريتي . . فأرى المَوتَ! . .

حريتي سوف تقتلكم أيها الناسُ . .

حريتي قبركم . . . فاذهبوا .

إذهبوا سالمينْ! . . .

. . . . . .

أيها الناسُ . . فلتغفروا لي ، أنا كالغولا الحزينْ

كالغولا الذي عشقَ الله والناسَ ،

حيْرَتُكم ضلّلْتني
قد غفرتُ لكم ضعفكم . . فاغفروا قوّتي .
ضعفُكم قتلَ الله فيَّ
ولكنْ . .
أنا . .
قوّتي قتلَتْني .

قد غفرتُ لكمْ . . فاغفروا لي إذنْ
هكذا نتساوى . .
ولكنْ . .
أنا الآنَ غيري! . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنا الآن غيري . .
أَدبُّ على أرضكم بيدينِ وساقينِ . .
لا قلبَ لي غير أسلحتي وجنوني
وما عاد يمكنني أن أُحِبّ وأصفحَ . . .
لا قلبَ لي ، فأنا الآنَ غيري
وأنتم شهودٌ على ما أُعِدُّ من الموت لي ولكم! . . .
ما الذي كان يمكنني أن أدبّرهُ للحياةِ سوى أن أقول لها :

حاذري ، ذهبَ الحبُّ ، لم يبقَ لي منه غيرُ ظلالٍ معفّرةٍ
تتسـرّبُ من خللِ الذكـرياتِ ، ويأسٍ عظيمٍ يهبُّ على
القلبِ :
يأسٌ . أراهُ وألمسهُ وأصلّي له حين أتعبُ . . .
يأسٌ ـ إلهٌ . . أُهدْهِدُه في ظلامي وأرعاهُ
أتبعهُ حيث يمشي . . وأجثو على قدميهِ
: أنا عبدُ يأسي! . . .
قويٌّ . . ولا ربَّ لي كي أتوبَ إليهِ . .
: أنا ربُّ نفسي
ربُّ نفسي اليتيمُ . . وجلاّدُها!! . .

ذهبَ الحبُّ! . .
يا أيها الناسُ ، ماذا إذنْ سوف يفعل من دونهِ كالغولا؟! . .
ينامُ ويأكلُ؟! . .
أمْ يتسلّى بمضغِ غبارِ عناكبهِ في الظلامِ . .
ويبصقُهُ في الظلامِ . .
ويبكي على نفسهِ في ظلام الظلامْ؟ . .
أمْ يظلّ يدبّ على أربعٍ في رواقِ ظلاماتهِ
مثلما يفعلُ الأعجمُ ـ الحيوانْ :

يستديرُ . . فيدْفنُ حيرتهُ تحت عشبِ الحياةِ
ويعْلكُ أحزانه فوق جثمانها؟! . .
أم يصيرُ إلهاً؟! . . . .
!! . . .
ذهبَ الحبُّ . ماذا إذنْ سوف أفعلُ لي ولكم؟! . . .
كنتُ أبصرتهُ ـ الموتَ ـ يرقصُ فوق غطاء السريرِ
ويلسعني في بياضةِ روحي! . .
صغيرٌ وأبيضُ ،
حطّتْ فراشتُهُ فوق لحمةِ قلبي . . وعضّتْهُ
: موتٌ جبانْ
ضربَ القلبَ! . .
لم أنتبهْ . لم أحرّكْ يداً . لم أقلْ : لا ، تمهّلْ . .
فقطْ ، كان موتاً صغيراً وأبيضَ! . .
أبصرتُهُ لحظةً . . ثم لا شيءَ .
موتٌ فقطْ . .
وظلامٌ يرفُّ على صخرةِ الأبديَّةِ :
موتْ . . .
موتُ موتْ!! . . .

هكذا صرتُ غيري! . . .

صار يَلزمني أنْ أهزّ السماءَ ، وأن أجعلَ الشمسَ تشرقُ
من حيث أخطو على صخرةِ الأرضِ .
تلزمني معجزاتٌ لكي تسكنَ الروحُ . .
تلزمني قوةُ اللّـــــــــهِ! . .
يلزمني بشرٌ يسجدونْ . .
بشرٌ يصرخونَ ، ينوحونَ ، يبتهلونَ ، يموتونَ . .
يلزمني مذنبونْ
كي أرى شهوةَ الله في قوةِ الله! . .
يلزمني دمُكم كلّهُ كي أعيشَ
وآلامُكم كلها كي أُطَمئِنَ خوفي
وخوفكُمُ كلّهُ . . كي أنام بلا ندمٍ أو ألمْ
ولكي يهدأَ القلبُ . .
يلزمني أن أرى نهر روما العظيمَ
يصيرُ إلى نهرِ دمْ .
فاذهبوا الآنَ ،
أو . . فاذهبوا .
إنكم تُضجرون ضميري وعقلي
تضجرون ذراعي وسيفي وحريتي وعذابي ـ عذابَ الشياطينِ
لا . انتظروا بعدُ . لا تتركوني وحيداً مع اليأسِ . .
هيا ، ارقصوا ، أُسعلوا ، عانقوا ، ارتجفوا ، ضاجعوا ،

قوقئوا كالدجاجِ ، انبحوا ، زقزقوا ،
إفـعلوا أيّ شيءٍ لكي أتسلّى . ضـجـرتُ . . ضـجـرتُ . .
وأَضجرُ أكثرَ . . .
تُضجرني قوتي وجنوني وقلبي وعينايَ
يُضجرني أنكم واقفونَ ، ويضجرني أنكم راكعونَ
وتضجرني نزواتي
ويضجرني ضجري . . وعنادي . . ويأسي ،
ويضجرني الحبُّ . . .

تضجرني قوةُ اللهِ .
. . . . . .
. . . . . .
قلتمْ : مريضٌ
وقلتمْ : سيشفى
وقلتمْ : غداً تستعيدُ الحياةُ جنينَ الحياةِ الذي يُفتَقَدْ .
غير أنْ . . .
كنتُ أُبصرُ في خوفكم خوفَ نفسي الذي يتصاعدُ
أبيضَ أسودَ ناراً دخاناً جنوناً زبدْ . .
ورأيتُ الذي لا يراه أحدْ :
قوتي ـ قوةَ الموتِ . .

موتي وموت الجميعِ!! . . .

. . . . . .

. . . . . .

إذنْ ، ذهب الحبُّ!! . . .

صرتُ ، وقد ذهبَ الحبُّ ، أكرهُ ما يفعلُ الحبُّ

أكرهُ مَحظيتي وحصاني ونفسي . . وأكرهكمْ .

ذهب الحبُّ؟ . . . فليذهبِ الحبُّ .

قلتُ : إذنْ ، كالغولا انتقِمْ

إنتقِمْ . . من براءتهمْ ومن اللهِ .

راهنتُ أنْ سوف أجعلُ منّي إلهي .

وراهنتُ أنْ سوف أجعل منكم غباراً

أُشعِّثهُ بيديَّ وأحشو به رحمَ الأرضِ .

راهنتُ أنْ سوف أجعلُ منْ صوفِ أرواحكم شرشفاً لسريري . .

وسجادةً لصلاتي . .

وقبّعةً لحصاني المهانْ

. . وراهنتُ ، راهنتُ

لكنْ . .

خسرتُ الرهانْ

. . . . . .

. . . . . .

كنتُ أعرفكمْ : جبناءُ ولكنْ قساةْ
جبناءُ . . ولكنكم قادرون على قتلِ ربّ الحياةِ
إذا لمستْ مِدْيةُ الموتِ لحمَ الحياةْ .
كنتُ أعرفكم جبناءَ . . فراهنتُ
راهنتُ أن سوف أجعلكم حفنةً من دخانْ
تتفتّتُ في أبديةِ هذا الزمانِ الدخانْ .
كنتُ أعرفكم جبناءَ . . فراهنتُ
راهنتُ . . لكنْ
مثلما كنتُ أعرفُ شهوةَ قلبي
كنتُ أعرفُ أني أدوسُ على مخلبِ الموتِ! . . .
من أجل ذلكَ راهنتُ
راهنتُ حتى . . خسرتُ الرهانْ .

***

أبداً . . لم تكن هبّةً من جنونْ
بل هو الخوفُ ، فانتبهوا . .
وحدهُ الخوفُ مَنْ شَحَذَ المِدْيَةَ ـ الموتَ
إنتبهوا أيها الإخوةُ السامعونْ
إنه الخوفُ . . مقبرةُ الأرضِ ، مقبرةُ الحبِّ ،

مقبرةُ الأقوياء ومقبرةُ الخائفينْ .
أبداً . . لم يكن كالغولا إلهاً لكي تعبدونْ
لم يكن غيرَ ربٍّ صغيرٍ أطاحتهُ قوّتُهُ ـ خوفُهُ . .
بعضُ ربٍّ صغير . . مضى
بعد أن جعل الأرضَ تبكي على أمها الأرضِ .
ربٍّ صغير
تعبَتْ منه جدّتُهُ الأرضُ
ثم أعادته «حياً» إلى أبديتهِ الأمِّ في ظلماتِ الفَلَكْ
ربّ يأسٍ صغير
جعل الحلمَ المنتَهَكْ
حلماً قاتلاً! . . .
كالغولا الذي كان يقتلُ أحلامكم
كان ـ في قلبهِ ـ يقتلُ اللهَ . . .

إسمع إذن كالغولا
كالغولا ، أخي وأبي وشبيهي ومالِكَ نفسي ،
أما قلتُ لكْ
إنّ من كان يخشاكَ
يمكنُ أن يقتلكْ!! . . .

*

*

كالغولا إذنْ . . لا أحدْ .

محضُ صوتْ

هبّ من عتمةِ الأبديّةِ

ثم اختفى ذائباً في دخانِ الدخانْ! . . .

كالغولا إذنْ . . لا أحدْ

محضُ صوتْ

صوتِ ربٍّ صغيرْ

أسودٍ ، طالعٍ من عماء الجنونِ ومن ظلماتِ الجسدْ

لا أحدْ . .

محضُ صوتْ

كان يحلمُ بالأبديّةِ . .

واللهِ . . .

والقمر الصعبِ . . .

لكنْ . . .

أبديّتُهُ قتلتْ نفسها!! . .

محضُ صوتْ

هبَّ من أبديةِ موتْ .

محضُ صوتْ

ذابَ في . . أبديةِ موتْ!! . . .

حزيران ٢٠٠٠

سلالم نوتردام..
أو:
قداس الفتى
الذي جاء ليموتَ في النور

«إلى كثيرين ، هناك ،
لعلّهم يستطيعون أن يميّزوا أسماءهم . .»

«في تشرين الثاني ـ ١٩٩٨ ـ كنت في باريس . وكان قد مضى على رحيل «جميل حتمل» أربع سنوات . وربما لأنه لم يغفر لي أنني لم أرافق جثمانه إلى المقبرة يومَ أعادوه إلى دمشق ، فقد قادني في حلمٍ أولِ ليلةٍ أمضيتها هناك . . إلى كنيسة نوتردام التي لم يسبق لي أن دخلتها من قبل .

كان يحمل زوّادةً شبيهةً بزوّادة الرعيان : منديلٌ قطني كبير (أعتقد أنه كان غطاءً لرأسه) معقودٌ على خبزٍ ، وبصل ، ونعناع ، وفول مدمّس بالزيت والكمّون . . (الآن أتساءل : كيف لم يندلقِ الزيت على كوفيّة الراعي؟! . . .) .

فَرَشَ الزوّادةَ على مقعد حجري . . ودعاني إلى وليمته : وليمة الميت .

كنتُ ـ في الحلم ـ أظن أنه ميت! . . ولكنني ، من قبيل اللياقة ، لم أسأله عن خبريّة موته . كنتُ ، فقط ، أتطلّع إليه لأتأكد من علامات الموت على وجهه : (هل كان يبكي؟ . . هل كان وجهه شاحباً؟ . . هل كان خائفاً من كونه ميتاً؟ . .)

كان يبدو أشبه بمريضٍ في نزهةِ نقاهة . . وكان سعيداً! . .

هناك ـ في الحلم ـ تناولنا معاً طعام الإفطار .

وهناك ـ في الحلم ـ شاهدنا الإيقونات داخل الكنيسة .

وهناك ـ في الحلم ـ تأكّد لي أنه ميت . ربما بسبب مذاق الفول الفاتر ، أو بسبب طعم النعناع الذي لم يكن طعم نعناع أصيل ، أو ربما بسبب الإشعاع الذهبي الملتبس لصندوق البويا النحاسي الذي كان يحمله!! . .

في اليوم التالي ، أو ربما الذي بعده ، كان لا بدّ لي من زيارة نوتردام ، وفاءً بوعدٍ قطعتُه على نفسي في تلك الصبيحة الباريسية الدامعة .

وهكذا ـ أنا وفاديا لاذقاني ـ أمكننا أن نُعِدّ لِـ «جميل حتمل» جنازته الثانية . . . وكنا وحيدَين فيها! . .» .

«في حينِ يزحف الحيوان باحثاً عن بقعةٍ مظلمة ليموت فيها ، يبحث الإنسان عن مكانٍ منير يموت فيه : إنه يريد أن يموت في بيت ، والظلام ليس بيتاً لنا أبداً» .

غراهام غرين

نوتردام ، نوتردام :
كأنما لا جدوى من الحكمةِ أو النصيحةْ . .
تماماً كما لا جدوى من مطاردةِ الحياة في الأحلامْ .
: رجلٌ أَلَمّتْ به شهوةٌ غامضةٌ إلى الموتْ
شهوةٌ غامضة إلى سماءٍ عالية ، وقبرٍ بعيدْ . .
قادني إلى هناكْ . . لأَشهد صعودَ الموتى .
رجلٌ ، في صبيحةِ موت ،
قادني إليكِ . . لأشهدَ وأبكي .

نوتردام ، نوتردام . .

شفيعةَ السكّيرين والعشاق واليتامى
أمَّ الشحاذين وماسحي الأحذيةْ
أمّ الزنوجِ والبدو ورعاةِ الصحارى
أمّ المشرّدين والشعراء والزنادقة والمنفيّين الذين تقطّعتْ سُبُلهم هناك ، في البلاد التي لا سبيلَ فيها إلا إلى الجنون أو إلى المقابرْ ؛ هناك . . حيث يُطلَق السراح للقتلة واللصوص والقوادين ، وتقامُ معسكراتُ التأهيل للبشر والماعز والببغاواتْ! . .
جاؤوا من هناكْ
يتناولون وجبتهم على مقاعدكِ الحجرية ، كأنهم يريدون رشوتكِ بقرابين النعناع . . والفولِ المدمَّسِ بالكمّون . . وفطائرِ الرعاةِ المطيَّبة بدموعِ أمهاتهم . .
جاؤوا من هناك
من شرقِ العار والجريمة والفضائحْ
مدفوعين بالخوف ، والأمل ، وشهوةِ اليائسين إلى الحياةْ . . ؛
من شرق العار إلى شمال الندمْ
لا لكي يحصدوا الأوسمة والذهبَ والعاهراتْ
لا لكي يُعمِّروا الكاتدرائيات والقلاعَ والمقابرْ
لكنْ ، فقط ، لكي يدفنوا تعاستهم في صقيع الأوهامْ ،

ويشتاقوا إلى بلادٍ مريضةٍ وماكرةْ . . لا يستطيعون فيها حتى أن يمشوا في جنازات آبائهم! . .

جاؤوا من هناك

لكي يطفئوا خيبتهم وأمراضهم وكوابيس بلادهم الجائرةْ ، في هواءٍ شاحبٍ وبليغ ، أَوجَعَ من الصلاةْ . . وأَعذبَ من الدمعةْ . . وأشدَّ طهارةً من خطايا مومسات «سان ديني» الفاضلات .

وها هم على الأرصفةْ ،

في الزوايا الخجولة لمقاهي سان ميشيل والباستيل ،

في حانات المنفيين والطلبة والعاهراتْ ،

في زوايا محطات الأنفاق ،

أمام أكشاك الهواتف التي ترنّ في أذهان الموتى . . ولكنها لا توصلُ الغصّاتِ ولا تطفىء عواصفَ الحنينْ ،

تحت أقدامِ تماثيلِ الشعراء والفلاسفة وشهداءِ الثوراتْ

في الساحاتْ . .

في المقابرْ . .

على الجسور الموصلة بين النحيب والأماني . .

جاؤوا من هناك

من شرق العبودية والجنون والضغائنْ

حيث يأكل الناس الهواء ، ويتنفسون الحسرة ، ويبصقون

سُويداءَ الندمْ . .

وحين يحاولون أن يحبّوا الحياةْ

يبسطون أكفّهم في الهواء كمن يريد أن يصلّي

ويغمضون أعينهم على أحلامهم . . كيلا يبصروا ظلام الظلامْ

من أجل هؤلاء ، أو ربما من أجل أنفسنا ، كنا نخادع الموت بالقصائد ، ونكتب على حيطان أكواخنا البائدةْ :

« الحياةُ عملٌ عسيرْ . . . . » .

ونحن أيضاً جئنا . .

نحن الذين ، في غفلةٍ عن الموت ، حملَتْنا أمهاتُنا تسعةَ أشهر كاملة كما أفترض (إذْ لم نكن يومها ـ ونحن نترنّح في ذلك الدفء الداكن الحميم ـ مهتمين بإحصاءِ الأسابيع والأيامْ) . . حملَتْنا أمهاتُنا تحت أغشية قلوبهنّ ، مثلما تحمِل الخيولُ والسعادينُ والأرانبْ . حمَلْنَنا على آمالٍ وغصّاتٍ وحمّى . دفّأنَ عُرينا بماءِ الأرحامْ . . وسقيننا من دمٍ رأفتهنّ الأبيض . صلّينَ لأجلنا متضرّعاتٍ إليكِ ، متوجّهاتٍ إلى نجمكِ الغامض الكريم . . دونما بوصلةٍ أو شاخصةٍ أو خريطةْ .

لكنْ ، فيما بعد ، حينَ ـ كالثيرانِ الصغيرةْ ـ نبتتْ لنا

شـوارب وقلوب وآلام . . كـان لابدّ أن تنبت لنا قـرونٌ وأرسنةٌ وحوافرْ .

تألمنا كعشاقْ . .

وصبرنا كقدّيسينْ . .

وغالبنا الضجر كملوكٍ مخلوعين يشيخون في غربةٍ أبديةْ .

وها نحن هنا ، على هذه الطاولة الحزينة ، نحكّ عقولنا من الضجر ، ونحاول أن نكتب ما يشبه سيرةً ذاتيةً لدابّةْ . . .

نشيخ على أعتاب الجمال ، فيما نحن نحتضر تحت هذا الليل الغامق الرؤومْ ، كديدانٍ طائشة تحلم بالسطو على مفاتيحِ الكرة الأرضيةْ . .

نجلس في بيوتِ أوهامنا ، بين ظهراني أنفسنا ، كغرباء في مأتمْ . لا نكلّم أحداً غير القطط والأوراق ومذيعات التلفزيون . . .

مسندين رؤوسنا هاكذا . . : ندبّر المكائدَ للحياة ، ونحلم أننا ربحنا أوراق يانصيبِ السعادةْ ؛ وأننا أخيراً سننام دونما كوابيس ، متخمين من الجمال والحرية والمسرّات ، كيرقاتٍ يتيمة ترعى في صندوقِ فاكهةْ .

مُسندين أرواحَنا هاكذا . . : نعضّ قلوبنا من اليأس ، ونعلّق الحياة في أعناقنا كميدالياتِ جنودٍ هُزموا .

لكنْ ، مع ذلك ، لن ننطح الجدار من الغيظ . . ولن نطلق

نيراننا على الهواءْ . لن نستغيث طالبين الرأفة ، وأيضاً لن نُضرِب عن الحياة من الندمْ .

لكنّ المعجزةْ ، المعجزة الأكيدة ، هي أننا مانزال على قيد الحياة ، نقضم الهواء من الضجر . . ونبحث تحت المقاصل عن براهين إضافيةٍ للسعادةْ! . . .

جئنا من هناك . . .

جاء الجميع ، وجئنا نحنْ .

وجاء اليتيم أيضاً . .

صديقي اليتيم الذي بلا أبٍ ولا أم ولا كنيسةْ . .

صديقي اليتيمُ اليتيمْ ، الذي كافأ نفسه بالموت ، ليعود إلى أرضه الحزينة . . مشحوناً في العنبر السفلي من طائرة الوطنْ ، ملفوفاً داخلَ نعشهِ بأسمالِ ثيابٍ وأوراقٍ وعواطفْ . .

عاد إلى الوطنْ . . مكفناً بالغبار والندم ودموعِ الغرباء الحامضةْ .

صديقي اليتيمُ اليتيمْ . .

بعنقه المائلْ ، وروحه النحيلةْ ، وأصابعه التي تكتب المراثي على صقيعِ الهواءْ .

جاء مَن رحم الظلامْ . . إلى رحمكِ الضاوي

يعالجُ خيبتهُ بالصمتْ ، ويداوي شقاءَ روحهِ بالدموعِ والغصّات والحبرِ الحزين الذي توهَّم طويلاً أنه قادرٌ على شفائه من الحنين والتعاسةِ وشيخوخة القلبْ . لكنه ، فجأةً ، فيما هو يتخبّط تحت جناحي نفسهِ كالعصفورْ ، صار في حاجةٍ إلى ما يشفيه من سموم الحنينِ والحبرِ والأحلام .

جاء إليكِ ، متوهماً أنه بالوداعةِ والضعفِ والكبرياء . . يستطيع أن يرفع أبراج الحياة ، ويُعيْدَ اللطافةَ إلى شرقِ العماءِ والتعاسةِ والجنونْ . . .

هناكَ ، بين يديكِ ، رأيتُه . . كما في حلم لا يشبه الأحلامْ . في ظلالِ أعمدتكِ التي هي أعمدةُ كاتدرائياتٍ أخرى ، وأيقوناتِك التي هي أيقوناتُ عصورٍ أخرى ؛ في مهبّ الشموع التي تتلألأ كالغصّات ، وتخفق كظلالِ أرواحِ الموتى . هناك ، حيث ذرفَ الغرباءُ أنفاسَهم في ظلالِ الأعمدةْ ، حيث بكى القديسون والخطاةُ والثكالى ، هناكَ هناكْ . . في الزاويةِ التي ليست أقلَّ وحشةً من زاويةِ قبرْ ، رأيتُ بصماتِ روحهِ منقوشةً في الهواء الداكنْ .

: (الألم بصمةُ الروح ـ همستُ في داخل نفسي) .

هناك رأيته ، يترنّح أمام أيقوناتٍ لم يسبق لي أن رأيتها إلا

في أحلامي . هناك ، فيما هو يتأهب لارتقاءِ سُلَّمه العالي الى الموت ، أمسكني من طرفِ قميصي وقال لي : أريد أن أذهب إلى «هناك» . . حيث أحلم أن يكون لي مترٌ صغيرٌ من الهواء أجعله بيتي وكنيستي وقبري .

هناك ، فيما هو يصعد السلَّم إلى الموتْ . .

هناك ، قبْل أن يلتقطَ صندوقَ البويا النحاسي ويذوبَ في النورْ . .

هناك . . كنتُ أترنّح كما لو أنني أمشي في جنازةِ نفسي . .

هناك ، فيما أنا أبكي على ضريح الأمل ، منعني حيائي - أو ربما خوفي - من أن أشعل شمعةً لراحةِ روحه وروحي .

ثم لم يلبث أن مضى ، متوغّلاً في ظلام هوائكِ الأبيضْ ، حاملاً قلبه الضعيفْ . . وعنقَهُ المائلْ . . وصندوقَ بويا المشرّدينْ .

تهيأ لي أنني سألتُه ، فيما هو يتسلق الهواءَ إلى أعلى :

● لماذا تبكي؟! . .

- لا شيءَ - قال لي - لا شيءْ .

● لماذا تبكي؟! . .

- ولماذا لا أبكي؟ .

الإنسانُ الذي لا يبكي يختنق بدخانِ غصَّتِه .

● ولماذا . . تبكي؟! .

ـ لا لشيءْ .

العالم مقفرٌ وعقيمْ . . كإنسانٍ بلا دموع .

● ولماذا تبكي؟! .

ـ لأن العدالة ظالمةٌ وعمياءْ . والناس وحيدون . والأرض تتعثر .

● ولماذا تبكي؟! .

ـ لا لشيء .

الجمال ميتٌ وخبيثْ . والأعراسُ مبقَّعةٌ بالدمْ .

● ولماذا تبكي؟! . .

ـ لأن النور ضعيفْ . . . وأنا أخاف من الظلمةْ .

فجأةً ، صار البياضُ ينغلق عليه . . كما تنغلق الظلمةُ على قلبِ الخائفْ ، حتى بدا أخيراً أشبه بفراشة مكفّنةٍ بالبياضْ ، فيما هو يذوب ويتقطّر كرذاذِ الأحلام ، مردّداً بينه وبين نفسه صلاةً لا تشبه الصلواتْ :

«في حينِ يزحف الحيوانْ

باحثاً عن بقعةٍ مظلمة ليموت فيها

يبحث الإنسانُ عن مكانٍ منيرٍ يموتُ فيه :

الإنسانُ . . يريد أن يموتَ في بيتْ
والظلامُ ليس بيتاً لنا أبداً» .

حاشية :

هناك ، نسيت أنني أيضاً كنت أتسلق حبال النور . لهذا نَسيت أن أقول لنفسي أن اسمه كان «جميل حتمل» ، وأن قلبه خذلته الحياة على ضفاف السابعة والثلاثين كما أعتقد . نسيت الغضب والتعاسة وغصة الكبرياء . نسيت حتى أن أقول أنه هو من قادني ، في الحلم ، الى كنيسة «نوتردام« لأ شعل الشموع أمام أيقوناتها . نسيتُ أنني شيخٌ عاقلٌ في الثانية والخمسين . . ولا يليق بيَ البكاء حين أتذكّر صعودَ الموتى .

. . ونسيتُ حتى أن أوضح له أن أيقونات «نوتردام» التي شاهدناها في الحلم ، لم تكن أبداً أيقونات «نوتردام» . . . ذلك لأ نني ـ كما لا يعلم ـ كنتُ قد شاهدتها من قبل في كنائس «فينيسيا» .

باريس

تشرين الثاني ـ ١٩٩٨

الباب الثاني

شهوات مُرّة...

هرباً من هناك....

في حلمي . .
سألني الرجل المكلَّف بتدقيق ملفّات اللاجئين :
ـ لماذا جئتَ أيها الغريبْ؟ . .
● هرباً من هناك . .
من بلادٍ مجنونةٍ لم يعد فيها ما تُرفع الصلاةُ إليه
غيرُ المقابرِ ، والأوثان ،
وأقواسِ النصر المكفَّنةِ بالغبارِ
والوصايا
وجثثِ الأزهار المشنوقة في أعراس البرابرةْ! . .
من هناكْ . .
حيث يَدْفن الناسُ طفولتهم في الدموعْ
وشبابَهم في الخيباتْ
وشيخوختهم في جنون المجانينْ
وموتَهم . . في ما لا يعرفون مِن أسمائهِ

ـ وما الذي تريد أن تفعله هنا
أيها الإنسان الطيّبْ؟ . .
● أن أُواصل حياتي بصمتْ
(بصمت . . كما فعلتُ دائماً حين كنتُ ما أزال هناكْ)
أتأمّلُ الغيوم . .
وأُطْلِقُ روحي تحت أجنحةِ حمامِ الساحات . .
وأتمنى أن أصير كلباً .
أمشي ، كاليتيم ، على ضفافِ مظاهراتِ الطلبةْ
وأُلوِّح بأعلام بيضاءَ
لا هدفَ لها غير أن تقول :
«الحرية . . أثمنُ من الوطنْ
والعدالة . . أقدسُ من الملكوتْ» .
ابتسم للنساء على الأرصفةْ
وألاطف العجائز الحزينات على مقاعدِ حدائق البلديةْ .
وحين تعصف بي وحدة اليتامى
أتسلّلُ إلى محطاتِ مترو الأنفاقْ
أعزف على عودي وأغني

حتى أجعل الحيطانَ ترتعشْ . .
والمقاعدَ تئنّ . .
والهواءَ يبكي
والبشرَ السعداء يكفكفون غصّاتهم ويشهقونْ :
«من أيّ بلادٍ موجعةٍ
يهبّ هذا الغناء الدامي؟! . . .» .

حتى إذا شبعتُ من التسكع والغناء والدموعْ
أعود إلى بيتي في الضواحي
أداوي كآبتي بالصفيرْ
وأهدهد تعاسةَ نفسي بالأحلامْ ،
أَعُدّ خطواتي الصغيرة ، من زاويةٍ إلى زاويةْ ،
كمن يقيس المسافة بين الكروم والبيادرْ . . .
ثم . . من زاويةٍ إلى أخرى :
بين التلالِ والينابيعْ! . .

ولكي أسلّي روحي ، في آحادِ الخريف الموحشةْ
أزرع أبصال النرجس والسيكلامان . . على حافة نافذتي
لأوهم نفسي أنني ما أزال
أطلُّ على حقولِ بلادي الدامعةْ . . .
وجبالها المريضة . . .

وهوائِها الذليلِ المحنَّطْ .

وحين تداهمني الكوابيسْ
أَخرج إلى نورِ الدنيا ،
أتسكع في الشوارع كالسياح المفلسينْ :
ياقتي مرفوعةْ
وقلبي دامعْ
ويداي في جيبي ،
وعلى فمي
تسيل قطراتُ أمطارٍ طاهرةٌ كدموع الأيتامْ .
أقف على بابِ اللهِ كالشحاذ . . وأتمتمْ :
«يا ربّ . . أَعِدْني إلى رحم أمي
لأتدفّأ بظلامِ أحشائها
وأَرضع أصابعي تحت دقات قلبها الزاهد الكريمْ .
أَعِدْني . . إلى ماءِ حنانها القدّوس
حيث الشرنقةُ أضوأُ من البحر
والسكينةُ أَبْلَغُ من الموسيقى ؛

يا ربّ ، أعدني إلى الرحمْ . .» .

. . . . . .

من أجل هذا أتيتُ يا سيدي

من أجل الأحلام أتيتْ
من أجل سعادةِ القلب التي تجعل الغريب يبكي
من أجل هذا أتيتْ
إلى هنا ، حيث يمكن للإنسان ، دونما حياء ،
أن يسجد للضعف
ويعبد الجمال
ويسكر برائحةِ عطفِ الإنسانْ
جئتُ . . . أُطهِّر تعاستي بالدمع
وأُرقّع ثقوبَ حياتي بالأحلامْ .
جئت أواصل حياتي بصمت
متكئاً بمرفقي على طاولةٍ صغيرة في زاويةِ مقهى
أكتب الرسائل والأشعار . . وأقاوم الندمْ ،
ألعن الطغاةَ
والضجرَ
وأحابيلَ الحياةْ
وأَحِنُّ إلى بلادٍ ضاريةٍ
لا أتمنّى . . حتى أن أموت فيها .

كانون أول ٩٨

باريس

لأجل هذا...

ها أنذا ، أخيراً ،دونما حياء أو خوف ،
أرفع يديْ الكليلةَ إلى فوق . . وأشدّ لحافكَ الدامي .
ها أنذا ، وقد تكلّستْ روحي من الشقاء والصبر ،
أهزّ إصبعي في وجهك . . وأصرخ أمام عينيك :
«لا جدوى يا إلهنا . لا جدوى» . .
أهزّ الهـواء حـول عـرشك ، ومالكك ، وقـبـورِ أوليـائك الصالحينْ
أجمع يديَّ كالبوق وأصرخ :
لا جدوى يا إلهنا .
لا جدوى أيتها الحكمة . لا جدوى أيها الغضبْ .
لا جدوى أيتها الأوهام الموؤودة في أدمغة البرابرة
وتحت قفطانات القديسينْ .
ولا جدوى أيتها البراءةْ .
لا جدوى أيها الحب .

لا جدوى يا أمهاتنا الطيبات ، الصبورات ، عاثرات الحظ .
لا جدوى أيتها الأحلام الطائشة
المحلِّقة في الأعالي كنسورِ الكوابيسْ .
ولا جدوى أيها الندم .
سوف يهبّ الظلام أخيراً
سوف يهبُّ الشقاءُ ، والفزعُ ، والكراهيةْ . .
كزوبعةٍ مجنونة تلفُّ مداراتِ الأرض كلها :
القلوبُ تفرغ من الحبّ . .
والضمائرُ من الرأفةْ . .
والأرحامُ من غصّةِ قلب الإنسانْ .
سنُمضي ما تبقّى من حياتنا على الحافّةْ
خائفين ، قانطين ، شائخين تحت ضباب الزمنْ
نعلكُ الحسراتِ والندم
وأعشابَ الضجر الخارجةَ من شقوق التوابيت .

سنعيش على الحافةْ
بانتظارِ موتٍ كسول
لا يأتي إلا وقد تهرّأتْ عناصرُ الحياة كلها
بحيث لا تعود صالحةً للحياة . .
بل ، وأكثر : لا تعود صالحةً حتى للموتْ .

سنعيش على الحافّةْ
نرضع حليب النباتات الأخضرْ
ونَشْكُل الأزهارَ في قمصاننا كتمائمِ المحاربينْ . .
نعمِّر قلاعنا ومقابرنا على تلالِ المنافي
وندفّىء شيخوختنا على دخان الذكرياتْ .

على الحافّة نعيش ونحلمُ الحياةْ :
أكواخٌ وقبورٌ ومعابد
ديكةٌ وخيولٌ وحماماتٌ بيضٌ تحرث الهواء
وترعى حليبَ السماواتِ الأزرقْ
كلابٌ تحرسُ نومَ العشاق
وعرباتٌ تجرّها البغال
في دروبٍ مضوّأة بالوحل والقناديل والأغاني
صبايا جَمَّلتهنّ الآثام . . ولطّفتْ خُطاهنّ أسرارُ الحب
وأطفالٌ مبهورون بجمال الدنيا
يركضون في الشعاب التي عبّدتها أقدام الماعز
ويرشقون التاريخ بالحجارة .

نسوةٌ بلا وجع ولا ندم ولا حداد
يَدُرْنَ حول أعراسنا كالغجريات

ويُملِّحنَ لياليا بالمواويل
آباءٌ يضحكونْ . .
لأن الدنيا هي الدنيا . . والحياة كريمةٌ كالحياة . .
وأمهاتٌ أسْكَرَتْهنَّ السعادة
يرشقْنَنَا بالورود والدمعِ والأماني
أمهاتٌ . . أمهاتْ . .
أمهاتٌ : أكُفٌّ آلهةٍ تمسح الألم وتطيّبُ جراحَ الأرواحْ
أمهاتٌ : يشدُدْن آذاننا كراهباتِ «دير القديس بطرس» . . لأننا في تلك الأيام كنا مانزال نتفاخر بالسيوف والبنادق ، ونؤمن (هل كنا نؤمن حقاً؟ . .) أنّ الحقيقةَ أَطهرُ من الخطيئة . . والشجاعةَ أشرفُ من الحب . . وأسمالَ البطولة أثمنُ من أسمالِ الحياةْ! . .

أمهاتٌ : نورٌ سائل يتنقَّط على ظلامنا من شقوقِ سماواتٍ تتدلى على الأرض كوشاحِ حريرٍ أزرقْ .
أمهاتٌ : سلالُ وردٍ تخطو .
أمهاتٌ : صلواتٌ مذروفةٌ تنسكب في صباحِ عيدْ .
أمهاتٌ : أقمارٌ تتلألأ فوق مهدِ مسيح يضحكْ .
أمهاتٌ : أجنحةُ قديسين قادرةٌ على حملِ خطايا الأرض كلها .

أمهاتٌ : إلى جوار قلوبهنّ . . لا نعود في حاجةٍ إلى سقوفٍ أو أغطية أو تمائم تحمي قلوبنا من الضغائن والخوف والجنونْ .

أمهاتٌ : نورٌ يترقرق فوق أرضِ نورْ

حين نسند رؤوسنا إلى أحشائهنّ . . نسمع سقسقةَ أنهارٍ من الدموع والأغاني .

نحتمي بظلالِ أحلامهنّ . .

لنشهد كيف يتحول الألم إلى موسيقى . . والظلامُ إلى أعراسِ نُورْ . .

نسمع لهاث الأزهار . . ولوعةَ العناصر . . وتَنَفُّسَ براعم اللوز في البساتينْ . . .

نصغي إلى أنين الظلام الذي خلّفناه في أرحامهنّ الشقيّة . .

إلى عويلِ هواءِ الخريف الذي حرَّكناهُ ، بلا ندم ، يومَ قَذَفتنا آلامُهنَّ إلى الحياة :

نصغي إلى الألمْ .

. . . . . .

هناك ـ على سرير الأرض ـ فَتَحْنَ لنا أضلاعهن . .

وهَدْهَدْنَ حيرتنا بالنحيبْ

هناك ـ على سرير الأرض ـ

كأننا أنبياء خارجون من ألغازِ الكتبِ الأولى . .

فَرَشْنَ لنا المهودَ مطليّةً بالدمع
ورفعنَ لنا الأكواخ مسقوفةً بالأمل .
هناك ـ على سرير الأرض ـ ركعنَ وصلّينْ . .
رافعاتٍ رؤوسهنّ إلى أعلى ، كأنما ليبحثنَ عن نجمةِ المجوسِ الهاديةِ إلى مذاودِ الأنبياءْ .
على سرير الأرضَ التي . . من أنينها تتوهج أنوار الربيع
وتتوقَّدُ الأغاني على ألسنةِ العصافيرْ
هناك ، على سرير الأرض ، سريرِ أمهاتنا ، سريرِ اللطافةِ والوردِ والنورِ والغفران . . هبطنا إلى الحياةْ
طافينَ فوق سريرِ موتنا ، بأثوابِ دمىً ، وضمائرِ ديدان ، وأوهامِ أباطرةٍ يزوِّقون خوفَهم بالشموع والتمائمْ! . .
فوق سرير موتنا
نترصّدُ عبورَ الملائكةِ في الظلامْ
لنقطف عن معاطفها الأزهار
ونجعلَ من أحلامها حشوةً للقنابلْ! . .

هنا ، على سريرِ موتنا ، نعيش ونحلم .
على حافةِ الحياة . . نعيش ونحلمُ الحياةْ . .
كغجرٍ تائهينَ بين الشقاء والموسيقى

نتدحرج إلى حيث تقودنا الأوهامُ . . ونبكي :
من الضجر أحياناً . .
ومن الحنين أحياناً ،
أحياناً من آلام الشعر
وأحياناً لأننا نعرف «أن العالم كله على خطأ! . .» .
نبكي لأننا نرى أعراس البشاعة
ونشهد احتضارَ الجمالْ .
نبكي لأننا نرى سرادقَ الموتِ منصوباً على التلّ . .
فيما نحن ، على السفوح المعتمة ، ننصب الشراك . .
ونشحذ الفؤوس ونلمّع نصال الخناجرْ .
نبكي على الجمال الذي يشيخ
والصداقةِ التي تتفسّخ بذورها فوق الصخرْ .
على من نحبُّ . . وأحياناً على من نكرهْ .
على الطغاةِ ، والفلاسفةِ ، والعشاقِ ، والقتلةِ ، والشعراءِ ، والقديسينْ . .
وعلينا أيضاً .
وعلى صانعاتِ الحياة أيضاً . .
على أمهاتنا اللواتي ، بقليلٍ من حليبهنّ الكريمْ ، صنعنَ «رجالَ الحياة . .» .
لا ليسعدوا ويحبّوا ويباركوا نعمة الحياةْ

بل . . ليموتوا فيما بعدُ على الحافّةْ
بغير إيمانْ
مطحونين في حروبِ رجالٍ يكرهون الحياةَ والأمل
ويدوسون ، كالبهائم ، على كرامة الإنسانْ! . .

لأجل هذا نبكي .
لأجل هذا أبكي . .
لأجل هذا أشدّ لحافكَ الدامي وأصرخ أمام عينيك :
لا جدوى يا إلهنا . . لا جدوى .
لا جدوى أيها الأصدقاء .
لا جدوى يا أمهاتنا
ولا جدوى أيتها الأحلام الهالكةُ على صخورِ السفح :

لن تأتي المغفرةْ
لن يأتيَ الجمالْ
ولن يأتيَ الأملْ

سيأتي الجنونْ
سيأتي الندمْ

و . . سيأتي الموت .

لكنْ . .

أبداً . . أبداً

لن يأتي النسيانْ .

آذار ـ ١٩٩٩

كيف لي أن أعرف؟!..

كيف لي أن أعرف أين هو وطني . .
أنا الذي أَضيع في شبرٍ من التراب
وأحلم أن أبني ضريحي على قارّةْ؟! . .

كيف لي أن أعرف أين هي سمائي . .
أنا الذي ، كيفما تنفست ،
تتسع رئتي حتى تغدو أرحبَ من السماواتْ ،
وحيثما أطلقتُ أغنيتي
ترنُّ كنغنغةِ جنينٍ في رحمِ أمٍ فلاحةْ ،
وكيفما مددتُ يدي
تتعثر أصابعي بفاكهةِ الأحلامْ
وتعود مبلّلةً بلعاب الأغاني! . .

كيف لي أن أعرف؟! . .

أنا الذي حين كنت ، كجميع الحالمين ،
أصرخ : يا وطنْ . . يا وطنْ . .
ما كنتُ أعرف أن بلاد الله ضيقةٌ إلى هذا الحدّ
وأن الشعراء ليس لهم وطن
غير القبور والمحابرْ!! . .
. . . . . .
أيامَ كنتُ ما أزال صغيراً ،
صغيراً وأبكم ،
قبل أن تتحول الدول إلى مناف ٍ
والمعابد إلى ثكناتِ حربْ
والسماواتُ إلى معسكراتِ موتى ؛
قبل أن يفطنَ الناس
إلى أهمية الدبابات في حراسة حظائر الماشية
عوضاً عن الكلابْ ؛
قبل أن صار العشاق
يحرسون أحلامهم بمسدساتٍ وخناجر مدفونةٍ تحت الوسائدْ ؛
قبل أن تتحول الأغاني إلى صيحاتِ غضبْ . .
والصلواتُ إلى أدعياتِ موتْ ؛
قبل أن يكون لكل قاتلٍ ديانةٌ وكتابْ

ولكل بيتٍ علمٌ ونشيدٌ ومقبرةْ ؛
(قبل الظلامْ . .)
أيامَ كان البشر يتداوون بالحبّ
ويتدبّرون أمور حياتهم
بحبالٍ
وأجراسِ ماشيةٍ
ومناجلِ حصادٍ مسنونةٍ بالحجارةِ
وملمعةٍ بالدموع ؛
(قبل الظلامْ . .)
كنا ، أنا وجدّي وأعمامي
وخال أمي السكير
الذي يعالج التعاسة بالمواويل
ويداوي المجاعة بعطور النباتات ،
كنا نجلس تحت السماء العارية كقدّيسي الحكاياتْ
نحلم بصحونٍ طائرة تهبط إلى جوارنا في حاكورةِ البيتْ
محملةً بالفاكهةِ والزبيب والأحذيةْ
ثم تعود بنا إلى «فوقْ . . .»
إلى فوق . . حيث يمكننا أن نفلح السماوات
ونزرعها عنباً وأسماكاً وبلحاً وموسيقى
ونرعى أغنامنا الحزينة

على ضفاف مجرّاتها المفضَّضةِ بالنور ودموعِ الأرانب . . ؛
أيامَ كنتُ صغيراً : أيامَ الأمل . .

الآن ، ليسامحني الله . .
ربما لم يعد أمامي
إلا أن أحلم بالصعود إلى السماء
لكي أغدو ملاكاً . .
ملاكاً بسيفٍ وقبعةٍ وجناحي شيطان .
ليسامحني ربي . .
. . . . . .
الآنَ ،
وقد كبرتُ ، وضجرتُ ، وتأملت ، وعرفت ، وخُذلت . .
وشابتْ لحيتي ودموعي وأفكاري ،
مازلتُ ، بين الحين والآخر ،
أتطلع إلى فوق . . كمن يتطلع إلى سقفِ ضريحٍ أزرق .
أجلس كاليتيم
على حافة حقلي الذي تحوّل إلى رماد . .
وأبكي .
أبكي . . لأنني أعرف أن السماء ما عادت صالحة للفلاحة . .

والمجرات ليست إلا دخانَ أرواحِ بشرٍ
هلكوا في غزوات الخبز والتنك والبطاطا . .
أبكي . . لأنني أعرف أن الدم (الأحمر تحت . .)
يمكن أن يكون لونه أزرق في الأعالي . .
وأيضاً ، أبكي . . لأنني لا أعرف .
أبكي . . لأنني لا أعرف ما يمكن أن أفعله بحياتي .
. . وحقاً : ما الذي يمكن أن أفعله بحياتي
إذا كان ما يجعل الآخرين يتأففون قليلاً
كمن يتأفف من مذاق لقمة مالحةْ
يجعلني أوشك على الجنون
كما لو أن زلزالاً كونياً ينفث حممه تحت وسادتي
فيما أنا أتسكع على حافة حلم أزرق! . . .
وأبكي . . لأنني صرتُ أعرف الآن
أنّ عملاقاً سماوياً ما . . لن يأتي في صحنٍ طائر
ليخطفني بذراعيه المجنحين ،
ويحملني إلى بلاد أخرى
كل ما فيها ، وكل من فيها ، يقول لي وهو يبتسم :
«مرحباً بك أيها الصديق الإنسان . .»
فأبكي .

شباط ـ ٢٠٠٠

أهلُ الحبر..

«إلى سعدي يوسف»

أهلُ الحبرِ الضعفاءْ
ما أجملهم!
يبنون بيوتاً بدخانٍ ورقائقِ غيمٍ
ويقولون لنا :
ما أبهجَ أن يحيا الإنسانْ
كالدودةِ . . حراً ونبيلاً
يحفرُ بين الأعشاب كنائسَهُ . . ويصلّي
كي تبقى أقمارُ الحبِّ
تضيء خرائبَ هذي الأرض العمياءْ

. . . . . .

ما أجملهم بشراً ،
ما أشقاهم قدّيسينَ ،
وما أوجعَ دربهمو رسلاً! . . .

ما أجملهم . .
يبكون على أنقاض الدنيا . . فتئنُّ على دنياها! . .
يبكون . . فيسقون هشيمَ حدائقها بدموعٍ خضراءْ .
. . . . . .
أهل الحبر الضعفاءْ
ما أتعسهم! . .
يسعون إلينا في الأحلام كما يسعى الموتى
يرتجفونَ ،
يئنّونَ ،
يخطّونَ على الماء رسائلَ لا يوصلها البحرُ إلينا :
كتباً . .
شهقاتٍ غامضةً ورسائلَ غوثٍ . .
أرواحاً جعَّدها الليلُ وأبقاها طافيةً فوق أديم الماءْ
كبقايا سفنٍ . . وتمائمِ بحّارينْ . .
. . . . . .
أهل الحبر حزينونَ ،
عراةٌ ووحيدونَ
كأنّهمو آلهةٌ أضجرها اليأسُ فشاخت! . .
. . . . . .
أهل الحبر الضعفاءْ

تلك هدايا الحبرِ إليهم :
ليلٌ أبيضُ
ونجومٌ سوداءْ .

٩٧/٣/٢١

أحزان أخرى..

هذا الربيع أعرفهْ . .
تماماً كما أعرف نفسي :
طائش . . مثل قبلة مسروقة خلف جدارْ
وموجع . . مثل أصابع ترتجف على حلمةِ نهدٍ غشيمْ .

هذا الهواء أعرفهْ :
شفّاف ، نديّ ، وعميقْ
أشمُّ فيه لهاثَ الأعشابْ
وأنينَ العناصرْ
وتنفُّس الماعز على سفوح التلالْ .

هذا الأخضر ، دم الحياةِ الكريمْ ،
أعرفهُ هو الآخرْ :
أخضرُ الوحشةْ

أخضر الحنينْ
أخضر الحسراتْ . .
غصّاتٌ خضراء
مذروفةٌ على الأرض مثل دمعةٍ سماويةٍ غامقةْ

وهذا النور أعرفه أيضاً :
رقراقٌ ، خفيفٌ ، وأزرقْ
شاحبٌ مثل هبّةِ بخورٍ تتلألأ
تحت أيقونةِ عذراء
تحلمُ بما لا تريد أن تُفصح عنه من آثامْ .

هذه الموسيقى التي . . كأنّما لا تُرى
أعرفها هي الأخرى
أراها وأعرفها :
بيضاء . .
سريّةْ . .
مكتوبة بغصّاتِ كائناتٍ تبكي .

كل شيء أعرفه . .
أشمّه ، وأراه ، وأعرف مذاقه بقلبي . .

أدوّن أوصافه بحنيني
وأسمّيه ربيعاً
لأنني لا أعرف كيف أميّزهُ بأسماء أخرى! . .
فقطْ . . أسمّيه الربيعْ
لكي أغدو سعيداً به! . .
. . . . . .
لكنْ . . بعدَ قليلٍ قليلْ
سيأتي رسولُ الحياةِ الصغيرْ
بعنقه المائل ، وكفّيه الحائرتين ، وروحه الدامعةْ
ليقول لي : حاذرْ من الأحلامْ
ما تراهُ ليس ربيعاً
: إنها أحزانٌ أخرى .

بعد قليلٍ قليلْ
سيأتي الغزاةُ . . هابطينَ من أعالي التلّ .
بعد قليلٍ . . قليلْ
سيأتي القناصون ، ومشاةُ البحرية ، وكهنةُ الدباباتْ .
بعد قليلٍ . . قليلْ
ـ فوق لحافِ الربيعِ نفسهْ ـ
سيأتي الموتْ :

لامعاً كشهقةْ
خفيفاً كالعطرْ
وهيّناً . . كمنْ يقول : آه يا أمي! . . .
صدّقني إذنْ ـ يقول الرسولْ ـ
ما تراهُ ليس ربيعاً . .
: إنها آلامٌ أخرى .
إنْ كنتَ تحبّ الربيعَ حقاً . . فلا تكتبْ عنه .
لا تكتبِ الألوانَ ، والروائحَ ، وطيشَ الموسيقى .
أُكتبْ تعاسةَ المعزاةْ
وعزلةَ الجبلْ
وغصّاتِ الهواء الذي ينتحبْ .
دعِ الربيع يمضي إلى شأنه . . وتأمّلْ في الترابْ
أكتبْ ـ تحتهُ وفوقه ـ
لوعة الثعابينْ
وحماقةَ الأرانبْ
وشقاءَ النحلْ .
أكتبْ عذاب البنفسجْ . .
بنفسجِ الموت الذي . . يتغذّى على الروثِ والعظام
وأرواحِ الموتى .
أُكتب خوفَ العشاق فوقَ العشب

وخيبةَ العشاق الذين ينامون تحت العشبْ .
أكتبِ الألمْ .
أكتبْ حيرةَ الجمالْ . .
أكتبْ هبوبَ الفوضى . .
واكتبِ الحياةَ أيضاً :
خضراءَ . . مثل الندم ،
يتيمةً . . مثل الحبّ ،
وساذجة . . مثل خدعةٍ صغيرةْ
يؤلّفها العاشق لنفسه كيلا يسقط في الجنون .
وتأمّلْ في الربيعْ
تأملْ في الربيع ، لكنْ . . لا تأمنْ له .
تأمل في الربيع . . كأنكَ أنتَ هوَ .
أَشفقْ عليه . . كأنكَ أنتَ هو .
أما إذا شئتَ أن تكتبَ عنه . . تماماً كما هوَ
فلا تكتبْ عن السعادةِ أبداً . .
وصدّقني :
السعادةُ . . حزنٌ . . أخضرْ .

آذار ـ ١٩٩٩

أدوات صغيرة...

بأصابعي هذه . .

(أصابعي الخرقاء ، النحيلة ، التي ترتجف من لسعةِ الجمال)

أستطيع أن أكتب القصائدْ

وأَفكّ خيوطَ الحياة المشتبكةْ

وأدغدغ أعناق النساء الطائشاتْ .

بكفيّ هاتين

أستطيع أن أهزَّ الخصورْ

وأدبّرَ مكائد الجمال الصغيرة

وأُطْبِقَ على النهود المتلعثمة . .

كما في صَدَفَةٍ من حريرٍ يرتعشْ .

بهذا الفم الخبيث

أستطيع أن أتأوّه ، وأُقبِّل ، وأُطْلقَ الحماقات ،
وأتذوّقَ ملوحةَ الجمال فوق بطون العذارى .

بعينيّ هاتين
أستطيع أن أفضح ألغاز الجمال المحرّمة
وأعرّي النساء العنيدات
متزلّجاً ، كاللص الأعمى ،
فوق عاناتهن المطيّبةِ بالدلال
وعطرِ الشهواتِ الأَسْود .

بهذه الأشياء الصغيرة . .
وبكثيرٍ سواها ،
أستطيع أن أُحب ، وأَفترس ، وأصلّي ،
وألهو ، وأتوجّع ، وأُخادع ، وأغضب ،
وأنتحب ، وأخون الوصايا المقدسة
دائخاً أمام هيبةِ الجمال العظيم .

أما بهذا القلب
بهذا القلب الصغير ، المرتبك ، الشجاع ، الخجول ،
المندفع . .

بهذا القلب الطمَّاع . . الذي لا يكفّ عن الشكوى
فلا أستطيع
حتى وأنا أحتفل بجمال الحياة ،
إلا أن أشهق من الحسرة
وأخافَ من موتٍ شرير
يترصّدني . . خلف هذه الورقة

نيسان - ١٩٩٩

طيشٌ أزرق..

حباً بي سأواصل هذا الحرثَ المغوي ،
حبّاً بي . .
بلساني وفمي وأصابع كفّيْ اليمنى ،
حباً بلطافةِ إنسانٍ (إنَسان ما)
يومىء لي من خلفِ غيومِ الحبر الزرقاءْ
ويقول : أحبكَ يا هذا الراعي المجهولْ ،
حباً بأخٍ ليس أخي أبداً
يتجرّأ فيّ منتصف الليل ويطرق بابي ،
وصديقٍ لم يسبق أنْ شاركني خبزي وشرابي
يرفع إصبعه في وجهي ويقول : اكتبني
(اكتبني . . لتراني) . .
حباً بامرأةٍ لا أعرفها
(أحياناً أبصرها في نومي :
شاحبةً ، كسلى ، بيضاءَ ،

مشعثةَ النهدين ، مجعَّدةَ قميصِ النوم ، خجولاً . .)
تتلألأ في وحشةِ فوضاها . . وتقول : اكتبني
(اكتبني . . لتراني)
أُكتبْ أني أمكَ ، وأبوكَ ، وجدّةُ أوهامكَ . .
أُكتبْ أني شيطانُ صلاتكَ وملاكُ خطاياكْ . .
أكتبْ أني قدّيسةُ سَعْيكَ وشفيعةُ محراثكَ
أُكتبني . . لتراني .

فإذنْ . . أكتبُها
أكتبها . . فأراها :
(شاحبةً ، بيضاءَ ، مجعَّدةَ قميصِ النوم ، إلى آخرِهِ . .)
ثم ، إذا انكتَبَتْ ،
لا تلبثُ أن تنهض عاريةً من بين الكلمات ، وتشهقُ :
يا للشيطان! . . كأنكَ أنت شقيقُ «أنا . .» . .
وكأنْ نحن هنا . . من زمنٍ
نتعاونُ تحت لحافِ الحب لكي نرفع هذا الكوخَ السريَّ
نشيِّده بدمٍ ، ودموعٍ ، وحنانٍ ،
ولهاثِ قلوبٍ وأصابعَ ،
وأنينٍ ،
وشقاوةِ عشاقٍ تعبوا من كثرةِ ما تعبوا في الحبّ . . فناموا .

واكتبْ : «نااااموا» .
أَكتبُ : «ناموا . .» . . . . فأنامْ .
أنامُ إلى جانبها . . تعبانَ سعيداً
فرِحاً بي . .
فرِحاً بأخي المجهولِ وضيفِ عشائي السرّيِّ . .
وبالمرأةِ . . قالت لي : «اكتبني لتراني» . .
فرأيتُ ، وباركتُ ، وصلّيتُ ، ونمتُ سعيداً . .
فرِحاً بجمالِ الأرضِ ،
بمغزى الصلواتِ ،
بضوضاءِ النور على إفريز الباب العالي . .
فرِحاً بالدودةِ ـ أمي الأولى (مازالت ترعى داخل أفكاري)
بالثعبان حفيدي ،
والخلدِ رسولِ شقائي الأعمى . .
فرحاً بالأعشابِ ،
وعبَّاداتِ الشمسِ ،
ولغْوِ ذكور الماعزِ ترقصُ في أعراسِ إناثِ الماعزِ ،
فرحاً بظلامي القدّوسِ
يهبّ فيشعل غبطته في روح الأشياءْ
فرحاً بجداولِ هذه اللغةِ الزرقاءْ . .
. . . . . .

ثم . . ،

كأني لم أحرثْ من قبلُ . .

ولم أطرقْ هذا البابَ الغامضَ من قبلُ ،

أَردُّ لحافَ العميانِ على شهوةِ نفسي

وأواصل حرثي الماكرَ

كي أطفىء شهوةَ هذي الأنثى البيضاءْ .

٢٦ نيسان ـ ٢٠٠٠

الفهرس

الباب الأول : رعَاةُ الظلام . . .	5
حديقة الأموات	7
يومَ قادتني جدتي لنشهد هبوط الموتى . .	15
ضيوفُ الهواء . . .	33
ساعة الذئب	51
محنة كاليغولا	64
سلالم نوتردام . .	79
الباب الثاني : شهوات مُرّة . . .	93
هرباً من هناك	95
لأجل هذا . . .	100
كيف لي أن أعرف؟! . .	109
أهلُ الحبر . .	114
أحزان أخرى . .	117
أدوات صغيرة . . .	122
طيشٌ أزرق . .	125

صدر للشاعر
(١٩٦٨-٢٠٠١)

- الوجه الذي لا يغيب
- حوارية الموت والنخيل
- عن الخوف والتماثيل
- أيها الزمان الضيق ، أيتها الأرض الواسعة
- وشاح من العشب لأمهات القتلى
- الله قريب من قلبي
- تعالوا نعرّف هذا اليأس «نصوص»
- بين هلاكين
- هكذا أتيت . . هكذا أمضي
- ما ليس شيئاً
- ما يشبه كلاماً أخيراً
- الله يبكي

تصميم الغلاف : ياسر صافي

ISBN:2-84305-512-X